

الفصل الثاني

المؤثرات الأجنبية

هل كنا إزاء (تفاعل) حضارى ؟

يقول علماء النبات أن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره أنتج ثمرا أحلى من النباتين ، فالستفاح إذا طعم بالكمرى جاء فاكهة جديدة أحلى مذاقا ، وأعطر شذى ، وكان بالتالى فى السوق أكثر طلبا وأعلى ثمنا ، ففيه طعم الفاكهتين ورائحتهما .^(١)

ويقول بعض الباحثين فى الذكاء ، إن الأسرة أو القبيلة التى يتزوج أفرادها بعضهم البعض الآخر يكون مصير أجيالها الضعف والغباء جيلا بعد جيل ، وعلى العكس ، إذا دخل الأسرة دائما دم جديد من أسرة أو أسر جديدة ، جاء النمل أكثر قوة وأنكى عقلا ، وبالتالى أصلح للبقاء وأقوى على النضال فى الحياة^(٢).

ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة إن الشعب أو المجتمع أو الدولة أو الحضارة التى تعيش وحدها وتتطوى على نفسها ولا يصيبها تطعيم أو تلقيح من حضارة غيرها ، يكون مصيرها الضعف والانحلال ، ولا نقول الزوال ، فإنها تبقى موسومة فى سجل التاريخ بأنها حضارة ضعيفة ، وهكذا نجد أن الحضارات القديمة كانت دائما على اتصال ، فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة لها وفيها جماع ما فى سابقتها من خير تتخذه كأساس لتبنى فوقه أبحاثا ، وكشوفات ، وعلوم ، وآداب ، وفنوننا جديدة هى كلها ثمرات لمجهود بشرى جديد^(٣) .

لكن عملية (التلاقى) و(التلاحق) ليست موحدة الصورة ، فلها أشكال عدة تختلف باختلاف اجتهادات الباحثين والصور التى لنا اقتراحها هنا تتحدد فى النماذج الأربعة التالية :

١- نموذج الانفصال والرفض ، وهنا نجد حضارات ترفض العلاقات المتبادلة تحت تأثير مشاعر الاستعلاء ، ومثالنا هنا ما نجده فى الفكر الرومانى من عنصرية واضحة ، فثيشرون رغم اعتداله - يقول - نحن لا نتعلم من أحده !

٢- نموذج التزاوج ، ومثالنا هنا الحضارة العربية الإسلامية ، فالمجتمع العربي ابتداء من العصر الأموي أقبل على فلاسفة الفكر اليونانى وعلى معالم الخبرة الفارسية ينهل منهما ويستقى من جزئياتها مما يسمح له ببناء إطاره المتكامل للثقافة المتحضرة .

٣- نموذج التوحيد وهذا النموذج يستقبل لا ليخصب وإنما ليقلد . انه يقبل على نموذج آخر وهو غير قادر على البناء والتشييد يخفض ذلك النموذج ويرى فيه حلا لمشاكله ، وهذا مما يلحظ فى العلاقة بين النموذج الكاثوليكي والتراث الرومانى وبصفة خاصة فى كل ما له صلة بالشطر النظامى والقانونى للحضارة (٤).

٤- نموذج الهيمنة والسيطرة ، وهنا نجد أصحاب هذا النموذج لا يهدفون إلى التفاعل البناء دائما إلى التخطيط بعيد المدى للسيطرة والهيمنة على الآخر لا مجرد الاحتواء وإنما لاستغلالهم وجعلهم دائما فى منزلة التابعين الأتلة ، أو هو - فيما نعتقد - يتمثل فى الصورة الحديثة والمعاصرة لعلاقة الحضارة الغربية بالعرب والمسلمين !

ونحن فى هذا السبيل نفرق بين الثقافة الذاتية لأمة ما ، وبين العلم الذى لا وطن له والذى يشيع بين الناس دون عائق ! نعم هناك معارف تتصل بالكون والحياة يتناولها الناس حيث كانت ، بل لعلمهم يدفعون المال والجهد لتحصيلها .. وآثار هذه المعرفة كالجسر الذى يبنى فى أوربا على شاطئ نهر لا يختلف كثيرا عن زميله الذى يبنى فى الصين ، وقواعد الهندسة التى تحكمها واحدة .. والجراحة التى تجرى للجسم الإيمانى فى أمريكا هى التى تجرى له فى أى مستشفى آخر متقدم ، والتعليمات الطبية المقررة لا تختلف هنا وهناك والناس يتسابقون إلى إحراز الكثير من هذه العلوم ، بل لعل الروس مثلا يتجسسون على خصومهم فى الغرب - وهؤلاء يفعلون العكس أيضاً - ليروا : هل سبقوا إلى تقدم نرى أو تفوق فننى فى أى مجال لينقلوه عنهم ! لكن هل ينقلون عن خصومهم الفكر الاقتصادى أو التنظيم الاجتماعى أو فلسفة القيمة والعمل ؟ بالطبع كلا (٥).

إن الثقافة الذاتية للأمة شئ آخر غير العلم العام ! هذه الثقافة هى التى تصنع ' شخصية ' الأمة وتبرز معالمها وتحدد خصائصها وتقرر تقاليدها وقوانينها وتستحسن لها أشياء وتستهجى أخرى ، بل هى التى تكون مزاج الأمة العام وأدبها وغناها وما يطربها أو يشجيبها ، ثم تخط لها مجراها الخاص فى الحياة الإنسانية .. ولا نزع أن كل ثقافة ذاتية لأمة

تستند إلى أساس صحيح ، ولكننا نؤكد أن كل أمة ترى في هذه الثقافة الخاصة كيانها الأدبي وملاحظها المميزة وتعتبرها ذاتها ، ثم تدافع عن ذاتها بما تملك .

ولعل أول (موجة غربية) حضارية شهدها العالم العربى ، قد أتته من بلاد اليونان ، فلقد ظهرت فيها فى العصور القديمة مذاهب فلسفية وتربوية شامخة ونظريات علمية هامة ، تمكن بها اليونانيون من أن ينقلوا الإنسان من عهد الأسطورة والخرافة إلى عهد التفكير المنطقى المنظم ، وكان من الطبيعى أن تمتد آثار هذه الحركة الفكرية الهائلة إلى الشعوب المجاورة . وبالفعل استجابت الشعوب العربية للمؤثرات اليونانية حالما سنحت الفرصة لها . وكانت حركة الترجمة الهائلة التى نقلت بها المؤلفات الفلسفية اليونانية إلى السريانية والعربية دليلاً على مدى التقارب الحضارى بين هاتين المنطقتين . والواقع أن هذه الحركة كانت ، بالنسبة إلى هذا العصر ، تمثل ظاهرة فريدة ليس لها فى العالم ، نظير ولو سألنا أنفسنا : أى شعوب الأرض تمكنت من استيعاب تراث اليونانيين والإفادة منه بعمق ووعى فى هذه الفترة البعيدة من العصور الوسطى ، لكان الجواب : الشعوب العربية وحدها (٦).

إعصار غير حضارى .. تتولد عنه حضارة

وهبت أعاصير الحرب على العالم الاسلامى منتهى القرن الحادى عشر ، وظلت تعنف به عنفا يكاد يكون متصلا حتى مطلع القرن الخامس عشر ، وقد بدأت هذه الحرب بهبوط الصليبيين الشام سنة ١٠٩٧ وبلغت ذروتها بانقضاض المغول على آسيا الصغرى فى صدر القرن الثالث عشر ، ثم مالت إلى الهدوء فى القرن الذى يليه لتتلعق من جديد أول القرن الخامس عشر إذ عاود المغول غاراتهم الرهيبة على الشام وظلوا يهددون حتى ظهور الحكم العثمانى ، الذى اعتبره البعض هو نفس الخطر الذى استطاع أن يهدد القارة الأوربية تهديدا متواليا حتى نهاية القرن السابع عشر (٧).

ولم تكن هذه الحرب من الحروب العادية التى تواترت على الشرق والغرب ، بين سقوط الدول القديمة وظهور الدول الحديثة ، بين مدينة ومدينة أو أمير وأمير أو ما ندعوه بالسلطة الزمنية والسلطة الروحية . كانت حربا ضروسا من الحروب التى يضررها اضطراع العناصر الاجتماعية من حين إلى حين فتتقضى نسج التاريخ وتقيم من الدماء حضارات جديدة ، كهجرة الأريين إلى الغرب فى فجر التاريخ ، وغزوات القبائل الجرمانية لجنوب

أوروبا فى القرن الخامس والفتوح العربية فى القرن السابع ، فكان الصليبيون هم أوروبا الخارجة من ليل الغزوات الجرمانية إلى فجر النهضة بعد أن امتزج بها الغزاة بالمغزوين فى مجتمَع جديد واحد .

جاء فى تاريخ البابوات تأليف المسيو فرناند هايوارد Fernand Hayward ، وهو مؤرخ كاثوليكي المشرب ، أن البابا سيلفستر الذى عاش فى أوائل الألف سنة بعد المسيح كان أول من نادى المسيحيين فى أوروبا لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم تصادف هذه الدعوة فى ذلك الوقت الحماسة اللازمة لها لأن أوروبا لم تكن مستعدة لحرب كهذه.

وفى سنة ١٠٧٤ استتجد ميخائيل الثانى قيصر بيزانطية بالبابا غريغوريوس السابع لينصره على السلاجقة المسلمين الذين كانوا يشنون الغارات على أطراف السلطنة البيزنطية ، فى ذلك الوقت فكر البابا غريغوريوس فى إصلاء الإسلام حربا صليبية يهاجم بها الترك فى الشرق والعرب فى الغرب ، لأن العرب كانوا فى صقلية وأطراف إيطاليا. ويقول المؤرخ المذكور أن غريغوريوس السابع هو أول بابا فكر فى شن حرب صليبية على المسلمين ، ولكن لم تتخل هذه الفكرة فى حيز الإجراء إلا فى زمان البابا أربانوس الثانى (٨) .

قال أنه كان قد مضى قرابة مئة سنة وأوروبا تحدثت نفسها بالزحف صفا واحدا لحرب المسلمين ولا يتيسر ذلك لأسباب متعددة ، إلا أنه لما توالى من دولة بيزانطية الدعوات للبابا بأن ينصر مسيحيى الشرق على المسلمين ، توجه البابا أربانوس إلى فرنسا وطاف فى كثير من مننها وعقد مجمعا فى كليرمون Clermont فى سنة ١٠٩٥ فى ١٨ نوفمبر فحضر ذلك المجتمع أربعة عشر رئيس أساقفة ومائتان وخمسون مطرانا وأربعمئة قسيسا ممن يقال لهم أنصاف مطارنة ، وبعد أن تذاكروا فى مسائل كنسية خرج البابا إلى مساحة صبيحة تسع الجمهور وخطب الشعب قائلا : إن شعبا ملعونا قد اجتاح بلاد المسيحيين وأعمل فيها الحديد والنار وأهان المعابد وغضب المسيحيين وهتك الأعراض ، فمن ينتقم لهذه الإهانات سواكم أنتم معشر الفرنسيس الذين رفعكم الله فوق سائر الشعوب فى الشجاعة فتذكروا مآثر آباتكم !

فعندما ألقى البابا أربانوس هذا الخطاب قابله الشعب الفرنسى بحماسة زائدة وعلا الصراخ : هكذا يريد الله ! ووضعوها علامات الصليب على أثوابهم ، وطاف بطرس الناسك

فى البلدان يستنفر الأهالى للزحف وقتال المسلمين فى الشرق ، ولسنا الآن فى مقام تأريخ الحروب الصليبية وإنما نحن فى ذكر كيفية تولدها (١٠).

وإذا كانت النعمة التى سادت هى النعمة الدينية ، وإذا كانت الأعلام التى رفعت هى أعلام الدين ، فلقد أثبتت دراسات عديدة ليس هنا مجال حتى للإشارة إليها ، أن الأوضاع الطبقيّة والتناقضات السياسية ، والمصالح الاقتصادية هى المحرك الحقيقى .

وقد عادت فلول الصليبيين من الشرق يزداد جديد كان غذاء لنهضة سرعان ما أسفرت عن انطلاقة عقل أخذ يضرب فى أفاق الحياة بسلطان العلم والفكر حتى استوت على درجة من التقدم غدا الشرق حياها قزما ضئيلا (١٠).

وعادوا وهم يحملون من توقيير المسلمين والحضارة العربية ما حمل مؤرخا مثل ' هيرنشو ' على أن يقول : ' خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا (الكفار) الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة نبوية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وبقى هذا التوفير فى نفوس الأوربيين ، وبقيت معه ملامح الحروب الصليبية وانتصارات العثمانيين فى أوربا تعلقى من بأس العالم الإسلامى ، ثم بدأوا يدركون أن العملاق قد انقلب قزما مما كانوا يسمعون من أقاصيص الرحالة من تدهور العالم الإسلامى وضعف شعوبه فانبعث فيهم الطمع القديم فى امتلاكه والقضاء عليه (١١) .

وإذا كانت حروب الصليبيين ترجع ، فيما كانت ترجع إليه ، لما بدا على المجتمع الأوروبى فى نهاية عصر الوسط من انتعاش ، فقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك ، وكان من بداية ظهور بحر الشمال وسيطرة أوربا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكيتين ، هذا الاكتشاف الذى يعده أم سميث بحق أكبر حدث فى تاريخ الإنسانيّة إلى أيامه على الإطلاق ، ثم ما أعقب ذلك من نمو اقتصادى لا سابق له ، إذ كانت أوربا تتصل بأسواق الشرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها بغتة على عالم ثان وتنتقل بالتالى ، من الإنتاج المحلى البسيط لأمواقها المحدودة ، إلى الإنتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب آسيا وأفريقيا أيضا ، وتراول ما يستتبع هذا الإنتاج من اتجار ونقل ، ومن ثم كان ازدهار التجارة والصناعة فيها ازدهارا رائعا ، وكانت عودة الحياة إلى مدنها بعد أن هجرتها إلى الريف

عشية العصر الإقطاعي ، وكان ظهور المنشآت الصناعية والتجارية والمصرفية الحديثة (١٢) .

وكان المجتمع القائم على هذا النمو الاقتصادي يأخذ من ناحيته أثناء تلك بأسباب الرقى الذي نشهده في الغرب إلى اليوم ، فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعالم الجديد وأسيا الوسطى ، أي المناطق التي جعل أبناء أوربا ينزحون إليها ويتجرون معها فيثرون ويتكاثرون ويحيون حياة رحية جديدة ، وتمايزت وظائفه فافتقرت الشؤون الزمنية عن الشؤون الدينية ، وتنوع الاقتصاد وظهرت العلوم المختلفة ، وبرزت أجهزته فكانت الدولة الحديثة والكنيسة الحديثة والجامعات والمصارف .

وقد لازم هذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادثا في عالم الفكر أيضا من تحول عميق شامل فعاد المفكرون يدرسون آثار الماضي الإغريقي - الروماني ، حين كان الناس يعيشون ، ويبنون من حيث انتهى أسلافهم ، ويتعمقون مشاكل الحياة المادية ، بعد أن طال تعمقهم للحياة الآخرة ، ومن ثم كان الاتجاه الإنساني Humanism ، والنهضة ومذهب العقلين والمذاهب الفلسفية الحديثة ، وكان الاتجاه إلى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التي ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر (١٣) .

مواجهة حضارية على أسنة الرماح :

ولقد روج المؤرخون الغربيون ومن جاراتهم من مؤرخي العرب الذين تلمنوا عليهم فكرة خطيرة جدا تتلخص بأن العالم العربي قبل الوجود الغربي أو قبل التحدي الغربي ، كان في سبات عميق ، حضاريا ، تجسد في القرون الوسطى ، وأن أوضاعه السياسية والاجتماعية ، كانت على درجة عالية من الاستقرار نتيجة لتسلط سياسي واجتماعي لفئات معينة ، وأنه بدأ يتحرك ويتساءل ويحاول التغيير إثر صدمة القوة الغربية . ورغم أن هذه الفكرة ما زالت مسيطرة على معظم ما يكتب عن العالم العربي إلا أن البحوث والدراسات القليلة الجديدة التي رفضت الأسس الفكرية للعصور والتاريخ الاستشراقي ، تدل دلالة واضحة على أن حركات التغيير في العالم العربي ، ومحاولات استئناف النشاط الفكري السياسي ، سبقت الوجود العسكري في المنطقة ، وكان للوجود الاستعماري أثر سلبي على هذه الحركات الأصلية بحيث أنه شوهاها وحول وجهتها وأهدافها وسلبها أصالتها (١٤) .

والجدير بالإشارة إليه ، أنه أصبح مسلما به ، أن الفترة التي رافقت الوجود الاستعماري الغير مباشر ، أطلق عليها العرب فترة النهضة ، وأنه كان لهذه التسمية دلالة ، فما هي إلا التسليم الفكري للتصور لما كان عليه العرب ، ولما حاولت الفئات المطالبة بالتغيير أن تصل إليه . وما علينا في هذا المجال إلا أن نشير إلى تلك الحركات التي سبقت هذا الوجود الاستعماري والتي كانت محاولات جادة لممارسة النشاط لحضاري العربي أو لإحداث تغييرات سياسية أو اجتماعية من شأنها أن تحقق قدراً كبيراً من العدل والحرية والتكامل الاجتماعي ، فحركة الوهابيين في نجد ومنطقة الخليج ، والحركات المتكررة لإحداث تعديلات في نظرية وبنيات المعرفة في مصر عن طريق تعديل وتوسيع برامج الأزهر ، وحركة ظاهر العمر في فلسطين ، والشهابيين في لبنان ، ومحاولات لحم المجتمع في الجزائر وتونس بوضع حد للفصل الكامل بين الحاكم التركي - المواطن العربي .. كلها جاءت قبل الوجود الاستعماري والتحدى الغربي المباشر. والجدير بالأمر أن هذه الحركات جاءت نتيجة لإحساس داخلي بضرورة تعديلات في لبنات المجتمع وبضرورة استمرار حيوية الحضارة العربية استناداً إلى أصولها الفكرية الإسلامية ، وعلينا أن نلاحظ أيضاً أن التدخل الاستعماري جاء بعد أن أوشكت هذه الحركات على النجاح (١٥) !!

ومن أوضح الأمثلة لخطأ التاريخ المشار إليه ، هو الموقف من الحملة الفرنسية ، فالمدرسة الاستعمارية - والتي يقع كثير من العرب تحت تأثيرها أغلبهم بحسن نية - تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومي .. بداية تحررنا من الاستعمار التركي وخروجنا من القرون الوسطى ، ولكن الحملة الفرنسية في واقع الأمر هي بداية غزو الإمبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن أن تصبح الإمبريالية داعية تحرر وأداة التقدم والانتعاش ؟

ولعلاج هذا التناقض تتقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم (١٦) !

الأول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهي ظاهرة منعزلة عن تاريخ الاستعمار الفرنسي ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالشرق الإسلامي ، فالحملة الفرنسية - بموجب هذا الزعم - ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية ، وليس بالاستعمار الفرنسي ، ومن ثم فجيوش الاحتلال الفرنسي لم يكن جيشاً استعماريًا تقليدياً .. بل كان جيشاً ثورياً ، كان جيش تحرير ، إلا أن هذا الزعم تواجهه حقيقتان (١٧) : الأولى هي أن الجميع يتفقون اليوم على الطابع الاستعماري للثورة البورجوازية ، وأن دورها داخل بلادها يختلف

عن دورها - وان يكن مكملا له - الاستعماري خارج وطنها . الحقيقة الثانية هي أن الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسي الاستعماري الفرنسي .

الثاني : هو تعميم الطابع التحريري والتقدمي ليشمل الغزو الغربي كله .. فيصبح الغزو الأوربي للشرق عامل خير ، وعنصر تقدم محتوم .. حتى ولو لم يكن مرغوبا .. أما الآلام التي صاحبته فهي آلام التغيير التي لا سبيل إلى تفاديها ، إلا بمعاناتها ، ولا أمل في التقدم دون هذه المعاناة (١٨) !!

الثالث : القول بأن الوطن العربي بصفة عامة ، كان مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذي حدث هو استبدال استعمار متقدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئا ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير (١٩) !

يبدو أنه مما يصعب إنكاره أن الفرنسيين عند ما جاعوا إلى مصر ، أيقظوا في المصريين ذكريات قيمة لغارة الأوربيين الصليبية على العالم الإسلامي ، واعتقدوا أنها غارة جديدة لا تلبث أن تتحطم أمام صدمات المماليك القوية كما تحطمت غاراتهم من قبل أمام قطز وبيبرس وقلالون ، وما لبثوا أن أذكروا أن عهد المماليك العظام قد مضى ، وأن المماليك الذين يحكمونهم ليسوا إلا ظلالاتا لبطولة أفلت وانقضت عهدها (٢٠) .

وإذا كانت منشورات نابليون قد تحدثت عن المساواة ، ورفضت احتكار الحكم والسلطة عند المماليك ، فلم يكن في تفكير عزبُ مصر والشام وعقينتهم ما يمنع المساواة بين الناس ، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ارتقاء المناصب العالية .

وهناك من يؤكد أن أخطر خطوة اتخذها نابليون في مصر لإعادة بناء الدولة على الأسس الحديثة ، كانت قيامه بإنشاء " أول برلمان مصري عرف يومئذ باسم (الديوان العام) ، وكان أول تجربة عرفت في مصر في الحكم النيابي منذ عهد البطالمة ، ففي ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ دعا نابليون إلى إنشاء جمعية عامة مكونة من أعيان البلاد وذوى الشأن فيها وتكون لها صفة تمثيل المصريين على مستوى القطر كله بقصد استشارتها في النظام النهائي للمجالس التي أسسها وفي وضع النظام الإداري والمالي والقضائي في الدولة (٢١) !

لكن الذي تؤكد وثائق التاريخ أيضا أنه قبل أن يأتي بونابرت إلى مصر بثلاث سنوات ، أي في سنة ١٧٩٥ ، بلغت مقاومة الشعب المصري الظلم الوالى العثماني والمماليك

حدا وقف بالبلاد على حافة الثورة ، وأفضت هذه المقاومة إلى استخلاص زعماء البلاد ' حجة ' مكتوبة وقعها والى العثماني وزعيما المماليك : مراد بك وإبراهيم بك اللذان اقتسما السلطة في مصر ، وإذا أردنا أن نستغل لغة العصر الحديث فقد يجب أن نسمى هذه الحجة نواة أول دستور استخلصه عرب مصر من حكامها في الأزمنة الحديثة (٢٢).

ومع ذلك فلا نستطيع أن نغض الطرف عن الاجازات العلمية والثقافية للحملة الفرنسية على مصر والشام وخصوصا في مصر .

ولاشك أن الشعب المصري كان يمثل لقائد الحملة أهم العناصر التي ينبغي عليه أن يقيم بينه وبينها جسرا إعلاميا. ولقد كانت وسيلة الإعلام الرئيسية التي استخدمها بونابرت في مخاطبة المصريين ، والتي تبعه فيها خليفته من بعده ، هي المنشورات العربية المطبوعة. وكانت حيث شائعة قبل اختراع المطبعة ، المنادى في الطرق ، والإذاعة عن طريق ممثلي السلطات أو رجال الدين من منابر المساجد وفي غيرها من أماكن العبادة ، وبخاصة في أوقات الصلوات الجامعة (٢٣) .

والواقع أن الحملة لم تقض تاما على تلك الوسائل التقليدية القديمة ، وإنما استعانت بها كذلك وبخاصة في القرى. ولقد سجل ذلك في أكثر من موضع المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، فكان كثيرا ما يقول " ونادوا بذلك في الطرقات " أو " نبهوا أيضا بالمناداة بأن ... " . غير أن الجديد ، هو تلك (الأوراق المطبوعة) التي كان الفرنسيون كلما أرادوا إعلام المصريين بشئ أصدروا منها " نسخا كثيرة " و " أرسلوا منها إلى الأعيان ولصقوا منها نسخا في مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد (٢٤) .

وأنشأ بونابرت مصر صحفيين أحدهما (كوربيه دي ليجبت) و *Courier de l' Egypte* ، والثانية (لانيكار إيجيسين) *La De'cade Egyptienne* وصحيفة إلى (كوربيه) لم تكن موجهة للمصريين ، لأنهم يجهلون الفرنسية ، وإنما هي موجهة إلى جنود الحملة وإلى رجال الحكم في فرنسا حتى يقفوا أولا بأول على أخبار الغزو وحتى تقوى روحهم المعنوية. وكان مقرها في ميدان الأريكية ، وقد زار إدارتها بعض كباراء المصريين في ذلك الوقت ، ومنهم عبد الرحمن الجبرتي ، وشاهدوا كيف جرى العمل وأبدوا إعجابهم ودهشتهم (٢٥) !

ويلفت أحد كتاب (لاريكاد) وهو (تالين) J. L. Tallieh نظرنا إلى أن جهود الحملة العلمية كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الفرنسيين بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة ، يقول فى أحد مقالاته : " .. والهدف الذى نضعه نصب أعيننا هو تعريف أى عدد من الناس بمصر ، وليس كافيا أن يعرفها الفرنسيون الموجودون فيها فحسب ، وإنما أن تعرفها فرنسا بل أوروبا كلها ، فقد تأكد حتى الآن أن موارد هذه البلاد العظيمة وخصائصها الطبيعية ليست معروفة لدى الكثيرين معرفة كافية (٢٦) .

لقد كان هدف حملة بونايرت تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا. ولتحقيق هذا الهدف ، لم تكن اللجنة العلمية أقل أهمية من الجيش . لقد أدرك معظم رجال الحملة منذ البداية تقريبا ، أنه مقضى عليهم بالفشل ، وأن القطائع التى يقترفونها ويعانون منها لا جدوى منها على الإطلاق ، أما العلماء الذين كان أهم أهدافهم غزو المعرفة واستخدامها فى نفع الإنسان ، فلم يكن ممكنا أن يماورهم هذا الإحساس باليأس ومن ثم نرى رجلا مثل (جوفروا سانتليير) يستطيع أن يكتب إلى كوفيه فى غمرة الأهوال التى كانت كابوسا مزعجا لغيره من رجال الحملة : ' هنا أجد من جديد رجالا لا يفكرون إلا فى العلم أنسى أعيش فى قلب دوامة تشغى بالفكر .. إننا نشغل أنفسنا فى حماسة بجميع الموضوعات التى تهتم الحكومة ، وبالعلوم التى كرسنا أنفسنا لها بمحض اختيارنا ' (٢٧).

ومما يجدر ذكره أن العلماء الذين وفدوا إلى مصر مع الحملة كانوا ينتمون إلى هيتين منفصلتين كان لكل منهما قوامها الخاص بها ، ولا يربط بينها سوى صلة العلم وتضافر الجهود العلمية فحسب ، هما (لجنة العلوم والفنون) و(المجمع العلمى المصرى) ، أما الأولى فكانت تلك التى تألفت فى فرنسا كجزء من الحملة الذاهبة إلى مصر ، وأما الثانية هيئة (المجمع العلمى) فكانت تلك التى تم تشكيلها فى مصر بعد أن دخل نابليون القاهرة ، فقد صدر قرار من حكومة الإدارة فى ١٦ / ٣ / ١٧٩٨ يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف بونايرت المهندسين والبنائين وغيرهم ، من أعضاء الهيئات التى تخضع لإشراف وزارة الداخلية ، وكذلك مختلف الأشياء التى يريدونها بونايرت لحملة (٢٨) .

وهكذا عاش العلماء فى مصر عيشة دأب وبحث وتفتيب ، وانتشر أفرادهم وجماعاتهم فى طول البلاد وعرضها يفحصون ويكشفون ، ولا يمنعهم تشي الأوبئة والأمراض وخصوصاً الرمد والطاعون ، ولا يصدهم الخوف من تلك الاضطرابات والثورات التى

اقتضى إخمادها قيام الفرنسيين بالعمليات العسكرية العنيفة فى الوجهين البحرى والقبلى ، بل صار هؤلاء العلماء وزملاؤهم من الرسامين وسائر الفنيين يخرجون مع الحملات المرسله لإخضاع المدن والقرى ، أو مطاردة المماليك ، فيقومون بدراساتهم وينقبون عن الآثار ويفحصونها ويرسمونها ، ويحاولون إمطة اللثام عن تاريخ هذه البلاد القديمة وحياة شعوبها بينما يشتبك الجنود مع الثوار أو البكوات المماليك فى مناوشات دامية أو معارك طاحنة ، وكثيرا ما أصيب بعض هؤلاء العلماء بجراح خطيرة أو لقوا حتفهم بسبب هذه العمليات العسكرية ، وكثيرا ما سقط آخرون فريسة لوباء الطاعون أو لغيره من الأمراض المستعصية (٢٩) .

ولكن ماذا كان موقف العلماء المصريين ؟

يقول بونابرت فى مذكراته أنه لكى يسوس هؤلاء الناس - أى المصريين - لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وكان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء ، وفقهاء الشريعة لأئهم - أولا- كانوا كذلك - أى رؤساء بطبيعتهم - وثانيا - لأنهم كانوا مفسرى القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات تنشأ عن أفكار دينية ، وثالثا - لأن للعلماء خلقا ليئا ، ولأنهم - دون نزاع - أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصانا ، ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، وقد أخذت منهم كثيرا ، واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب .. (٣٠) .

وإذا كان هناك كثيرون من المؤرخين الذى أفاضوا فى اتصالات مباشرة قامت بين علماء الأزهر وعلماء الحملة مثل الجبرتى والخشاب والعمار بصفة رئيسية وأنهم شاهدوا الكثير من التجارب والأجهزة والأعمال العلمية الفرنسية (٣١) ، إلا أن " الأثر " لم يكن واضحا بحيث تكون له القدرة على التغيير والتوجيه .

يقول كريستوفر هيرولد (٣٢) أن شهادة شهود العيان الفرنسيين تجمع على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع . ولكن رواية الجبرتى تكنهم . لقد توقع الفرنسيون بالغرور المعهود فى الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدعثة صبيانية كدعثة الشعوب المتوحشة ، ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين أنهم هم السذج الأقل بصرا بشنون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثير بما شهدوا ، " لقد تأثر الشيوخ ما فى ذلك ريب .. بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من إعجابهم بعرض الألاعب والحيل الرخيصة

ولكنهم أبوا الخضوع لمسيطرة الغريب .. فأى الرجلين كان أكثر سداجة ؟ أهو الشرقي الذى لم يسمع من قبل بالكهرباء ، أم الأوربي الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقا أبنيا فى القيادة على غيره ؟

مسالك الثقافة الغربية إلى الفكر العربى

إذا كنا نستخدم هنا مصطلح (الثقافة الغربية) فإننا لا نقصره كما جرت عادة كثيرين على غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وإنما نقصد به أوروبا بشرقها وغربها ، وكذلك أمريكا ، واضعين فى الاعتبار بطبيعة الحال أن غرب أوروبا والولايات المتحدة سيستأثرون بالكلم الأكبر من الدراسة اتساقا مع حركة التاريخ - كما سنكشف عنها - التى تؤكد أنها مصدراً " التأثير " الأكبر والأهم والأخطر .

كذلك فإن حديثنا إذا كان سيتناول (الفكر العربى) فى كليته من حيث خضوعه لمؤثرات الثقافة الغربية ، فإن ذلك إنما يعكس مسلمة رئيسية تقوم عليها هذه الدراسة ، وهى أن الفكر التربوى ، إن هو إلا شريحة من هذا الفكر (الأب) وبالتالي ، فإن معظم ما خضع له هذا المصدر الرئيسى ، خضع له بالتالى ذاك القطاع التربوى ، وإذا ما حدث اختلاف ، فإنما هو فى الدرجة وفى سعة الانتشار أو التأثير .

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نحمل المسالك التى انتقلت عن طريقها المؤثرات الأجنبية الغربية إلى فكرنا العربى بصفة عامة ، والتربوى بصفة خاصة من الدروب الأتية التى تتفاوت أهمية وقوة وفاعلية باختلاف الزمان والمكان والقوة المؤثرة والأهداف المطلوب تحقيقها عن طريقها :

١ - الاستشراق

يعود اهتمام الأوربيين بالإنتاج الفكرى العربى والإسلامى إلى العهود الإسلامية الأولى^(٣٣) ، وأخذ هذا الاهتمام يزداد مع الزمن فكان من العوامل الرئيسية فى نهضة أوروبا العلمية والأوربية فى مطلع العصور الحديثة ، وتولت الكنيسة الكاثوليكية العناية بالمؤلفات العربية تنشرها وترجمها إلى اللاتينية . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، أنشأ الرهبان اليسوعيون مدرسة لتعليم اللغة والآداب العربية فى روما ، وأخذت الإرساليات

التبشيرية فى البلاد تنقل المؤلفات العربية إلى أوربا فامتألت بها مكاتب باريس ولايدن وإكسفورد ولندن وبرلين وفيينا وروما .

ومن متابعة الحركة الاستشراقية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر نلحظ أنها كانت تقف من الثقافة العربية والإسلامية موقف الدفاع أكثر منها موقف الهجوم تستقبل بعض عناصرها ، ولكنها لم تحاول أن تنال من تلك الثقافة ولا أن تلقى عليها بعناصر التشويه التى يندر لنا أن نواجهها خلال القرن التاسع عشر .

ويمكن القول بأنه منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر أضحى الاستشراق أداة أساسية من أدوات الغزو الاستعمارى فى المنطقة العربية .

أولاً : فهو وسيلة النفوذ الغربى والسياسة الأوربية لفهم العالم العربى سواء لاكتشاف نواحي الضعف أو نواحي القوة .

ثانياً : وهو أداة القوى الاستعمارية لاستقطاب القوى غير المسلمة وبذر عناصر الطابور الخامس فى تلك الأقطاب .

ثالثاً : وهو الأداة الحضارية لإعادة تشكيل منطقتى الطبقات القيادية (٣٤) .

ومنذ بداية القرن العشرين تحول اهتمام المستشرقين عن الدراسات القيمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التى تتابع تطور الفكر الإسلامى والمجتمعات العربية فى مختلف المناطق ، وهى دراسات موجهة هادئة يساير تطورها ، تطور السياسة الاستعمارية واتجاهها إلى التغريب ، وذلك واضح من كلام (جب) H.A.R Gibb الذى قدم به مجموعة البحوث التى قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان (إلى أين يتجه الإسلام ؟) - بالإنجليزية - والذى ظهر سنة ١٩٣٢ ، فهو يقرر فى هذه المقدمة أن مشكلة الإسلام - بالقياس إلى الأوربيين - ليست مشكلة علمية (أكاديمية) فحسب ، فإن لتعاليم الدين الإسلامى من السيطرة على المسلمين فى كل تصرفاتهم ، ما يجعل له مكانا بارزا فى أى تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامى ، فالإسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية ولكنه حضارة كاملة (٣٥) .

ومن الواضح أن سبب هذا التحول فى جهود المستشرقين عن دراسة العصور الإسلامية الأولى فى صدر الإسلام إلى دراسة العصر الحديث هو أن هذه الدراسات موجهة لمعرفة خصائص الشعوب الإسلامية والعربية ، ومعرفة أمثل الطرق فى التعامل معها لخدمة المصالح الاستعمارية . من أجل ذلك كان الاهتمام بالقيم الإسلامية والعربية الأولى حين كان

سلوك العرب امتدادا لسلوك آباؤهم وأجدادهم ، وحين كان تاريخهم امتدادا للتاريخ العربى والإسلامى ، فلما بدأت جهود الاستعمار فى التغريب توتى أكلها وبدأت آثاره واضحة فى سلوك العرب المعاصرين الذى أصبح ينم عن التبعية ، تحولت دراسات المستشرقين لرصد هذا التطور . أما أهم الوسائل التى اتبعتها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق فهى (٣٦) :

١- إنشاء كراسى للغات الشرقية فى الجامعات الأوروبية جميعها .

٢- إنشاء المكتبات الشرقية التى تحتوى على ملايين من الكتب والمخطوطات والنفائس العلمية والأدبية والتاريخية .

٣- إنشاء المطابع الشرقية .

٤- الجمعيات الآسيوية والمجلات الشرقية .

٥- المتاحف الشرقية .

٦- المؤتمرات الدولية (٣٧).

وقد أخذ بعض مفكرونا بأعمال المستشرقين وأعجبوا بها ما كان لابد أن يكون له دوره فى التأثير باتجاهاتهم ، فهذا هو طه حسين على سبيل المثال يصور علاقته بالمستشرق كازانوفى الذى علمه تفسير القرآن فى الكوليج دى فرانس قاتلا (٣٨) : "عرفته أستاذا فى الكوليج دى فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجابا لم أعرف له حدا ، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكن لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا فى إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه ، والكشف عن أسرارها وأغراضه ، فلم أكد أجلس إلى كازانوفى حتى تغير رأى أو قل حتى ذهب رأى كله ، وما هى إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر فى تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسننته وأصحاب الحق فى تأويله ، فتننت بهذا الرجل لا لأنه كان عالما حاذقا ، ولا لأن منهجه فى البحث كان متقنا نقيقا حصيفا ، بل لهذا الشيء آخر خير من هذا ، كان حرا خصبا رقيقا لا يتعصب لرأى ولا يتأثر بهذه العواطف النكرة التى تقصر على الناس علمهم وأدبهم وفنهم وحياتهم العقلية والشعورية . بوجه عام كان كازانوفى مسيحيا شديدا الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التعصب ، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى

فرانس نعى المسيحية واليهودية والإسلام وكل شئ ، إلا أن لها نصوصا يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاءون من ألوان البحث والامتحان . نعم لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه ويكتشف معناه .

والحق أنه من الصعب التسليم بمثل هذه " الحيدة " المطلقة بالنسبة لهذا المستشرق ، فضلا عما كان يراه من الحرية المطلقة فى القول بأن القرآن من كلام محمد وأن آيات القرآن يمكن أن توصف بالقوة والضعف !

٢ - التبشير :

من أقوال زعماء المبشرين عن أهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه (الإسلام والإسرائيليات) : إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما إذا ظلوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير (٣٩) .

وينصح القس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفرق المسلمين ، وهو نفس المعنى الذى عبر عنه براون فيما قبل بقوله فى كتابه : " إن الوحدة الإسلامية تجمع أمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى ثوب جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز منها (٤٠) .

ونحن إذ نشدد النكير على " التبشير " فلأنه كان " حصان طروادة " للاستعمار ، ولو كان خالصا لوجه الله والدين ما كنا نقف منه هذا الموقف ، يقول (غارنر) : " إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الإسلام والغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر فى فلتات لسانهم فإذا هى سياسية (٤١) .

إن يوليوس رشمتر يؤنب النصارى على قصور نظريهم فى أثناء العصور المتطاولة التى تلت ظهور الإسلام ، فإنهم كانوا فيها وادعين غافلين ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية تغيب شيئا فشيئا فى الإمبراطورية الإسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الأتراك العثمانيين ، ولا ريب فى أن رشمتر يتألم للناحية السياسية لأنه هو نفسه يذكر أن سكان الإمبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالإسم (٤٢) .

وكان القس (زويمر) رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين أول من ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانتية ، وعقد مؤتمر بالفعل في ٤ / ٤ / ١٩٠٦ بالقاهرة ، وقد صنف هذا المبشر كتاباً جمع فيه بعض تقارير عن التبشير وسماه (العالم الإسلامي اليوم) وجاء في هذا الكتاب قول سكرتير المؤتمر أن الخطة العدائية التي انتهجها الشباب المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين في القطر المصري إلى محاولة إعادة ثقة الشباب المسلمين بهم ، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات في موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين ، رغبة في جلب قلوب المسلمين إليهم * وأنشأوا بعد ذلك في القاهرة مجلة أسبوعية أسسها (الشرق والغرب) افتتحوا فيها باباً غير ديني يبحثون فيه الشؤون الاجتماعية والتاريخية ، وأسسوا أيضاً مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة ، والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومحادثتهم في أثناء البيع .

وبعد ثلاث سنوات فقط من ذلك توصل المبشرون إلى النتائج التالية^(٤٣).

- ١- أنهم عرفوا أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم وعواطفهم وميولهم .
- ٢- أنهم حصلوا على ثقة عدد من المسلمين بهم .
- ٤- أن المبشرين تحققوا أنهم بتظاهرتهم في وداد المعلمين وميلهم إلى ما تطمح إليه نفوسهم من الاستقلال السياسي والاجتماعي والنشأة القومية يمكنهم أن يدخلوا إلى قلوبهم .

وقد بدأت الإرساليات التبشيرية تغد إلى بلاد الشام في القرن السابع عشر ، وفي العام ١٨٤٧ أنشأ المبشرون البروتستانت (الجمعية السورية) في بيروت لغرض نشر العلوم وترقية الفنون بين العرب ، وكان من أعضائها البارزين ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والدكتور ميخائيل مشاقة وميخائيل مدور ونظمة ثابت وانطونيوس الأميوني ، ومن الأجانب القس عالي سميث والدكتور فاندريك والقس طومسون والمستشرق منصور كرلتي والدكتور يوحنا ورثبات وتشرشل . وفي عام ١٨٥٢ أصدرت هذه الجمعية مجلة تحمل اسمها وعهد إلى المعلم بطرس البستاني بتحريرها^(٤٤) .

وفي سنة ١٨٥٧ أنشئت الجمعية العلمية السورية على غرار الجمعية السورية ، واختلفت عنها بأنها كانت خليطاً من المسلمين والمسيحيين ، وظلت عاملة حتى عام ١٨٦٨ وحصلت على اعتراف الدولة العثمانية الرسمي بها^(٤٥).

وشهدت الجزيرة العربية نشاطا خطيرا للإرسالية الأمريكية العربية وهي بروتستانتية قام بتشكيلها الدكتور لانسنج Lansing الذى كان والده نفسه مبشرا فى سوريا لمدة طويلة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولانسنج هذا كان أستاذ اللغة العربية فى معهد اللاهوت فى (نيوبرونسوك) New Brunswick فى ولاية نيوجرسى الأمريكية ، وبدأت الإرسالية نشاطها الفعلى سنة ١٨٨٩ (٤٦) .

وأقامت الإرسالية عدة (محطات) بأولها فى البصرة بالعراق التى أصبحت فى السنوات التالية مركزا وقاعدة لعملياتهم فى منطقة الخليج العربى ، وعند استقرار أوضاع الإرسالية فى البصرة رأى المبشرون أن الوقت قد حان لافتتاح محطة جديدة فى الخليج ، ووقع اختيارهم على البحرين ، وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ، واستطاعت فى السنة التالية أن تنشئ مستشفى ومدرسة ، ثم تحركت الإرسالية بعد ذلك لإقامة محطة أخرى فى مسقط ، وكانت مسقط تعتبر موقعا حساسا إذ كانت تسيطر على الطرف الجنوبى للخليج العربى ، وكان التبشير فى تلك المنطقة بالذات على درجة كبيرة من الأهمية للدور التاريخى الذى لعبه العمانيون فى شرق أفريقيا (٤٧) ، وبعد ذلك انتقلوا لافتتاح مركز آخر فى الكويت ...إلى غير ذلك من محطات ومراكز .

وبعد خمس وثمانين سنة من النشاط المتواصل للإرسالية العربية فى الخليج العربى اتخذ مؤتمر الكنيسة الإصلاحية المنعقد فى شهر مارس سنة ١٩٧٣ قرارا بوضع حد لعمل الإرسالية العربية الأمريكية والمؤسسات التابعة لها . ومنذ ذلك التاريخ والإرسالية مغلقة رسميا وصارت كل واحدة من مؤسساتها تدار محليا ، وأصبحت علاقتها بالكنيسة الإصلاحية مجرد علاقة أدبية (٤٨) .

٣- دور النشر :

والملاحظة الأساسية التى تبرز أمامنا هنا هو أن الدول الكبرى إذ تنشئ فى البلاد العربية مراكز لنشر ثقافتها وعلومها ، فإن الطابع الغالب يكون سياسيا وإن تغلف بغلاف من الرغبة المعلنة فى توسيع دائرة الثقافة وتبادل المعلومات ، وربما يكون من العسير علينا تتبع الأمثلة على ذلك ، ومن هنا فسوف نكتفى بمثال واحد لمؤسسة للنشر كان لها دور خطير فى ثقافتنا المعاصرة وخاصة فى مجال الفكر التربوى وذلك نظرا للكم الكبير من الكتب التربوية التى نشرتها ، ولذلك التعاون الوثيق الذى تم بينها وبين القيادات المسؤولة عن التعليم .

فقد ابتدأت "مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر" بالقاهرة - نيويورك ، وهي المؤسسة التي ظلت تطالعنا يوميا بإعلاناتها عن الكتب الهامة جدا " كتب لا بد أن تقرأ " نشاطها الثقافي بالقاهرة منذ سنة ١٩٥٣ وذلك تنفيذا لاتفاقية عن التبادل الثقافي بين الحكومة المصرية وأمريكا ، وأخذت مؤسسة فرانكلين بنيويورك على عاتقها تنفيذ عملية التبادل الثقافي هذه ، على أن تضطلع بمهمة (نقل أمهات الكتب الأمريكية) إلى اللغة العربية ، واقترح عليها بعض المنقذين ممن استشارتهم هذه المؤسسة حينذاك ألا تكتفى بنقل الكتب الأمريكية فقط ، بل يحسن أن ينقلوا إلى العربية أمهات الكتب الإنسانيّة والعالمية أيا كانت ، ولكن المؤسسة كانت تعرف تماما الغاية التي تعمل لها وهي نشر كل ما هو أمريكي أو يعبر عن وجهة نظرهم فقط أولاً وقبل كل شيء ، وضربت بهذه النصيحة وأمثالها عرض الحائط أو عرض البحر (٤٩) !

وكان المفروض أيضا أن تساعد هذه المؤسسة على نقل أمهات الكتب العربية إلى اللغة الإنجليزية ، ولكن ذلك لم يوضع قط موضع التنفيذ الجاد لأن المقصود قط هو التسلل إلى الثقافة العربية كهدف مرحلي من أهداف نشر هذه المؤسسة للثقافة ، هدف غايته البعيدة احتواء الثقافة العربية وطبعها بطابع معين .

وفي مقدمة المستشار العام للمؤسسة التي قدم بها قائمة مطبوعاتها عن المدة ١٩٥٣-١٩٦١ ، زعم أن المؤسسة تلتزم بعض المبادئ ، وهي أنها لا تنشر كتب الدعاية ، وأنها تتجنب المسائل الخلافية من سياسية ودينية ، وأنها تختار الكتاب الجيد ، وأن للكلمة الأولى والأخيرة في اختيار الكتب " للخبراء والمستشارين من العلماء العرب " ، والحقيقة المعروفة التي لم ينكرها أن الموافقة النهائية على نشر أي كتاب لا بد أن تأتي من نيويورك (٥٠) !!

وقد كانت هذه المبادئ المعلنة والمدعاة محاولة للتغلب على ما واجهت به المؤسسة من كشف لحقيقتها كمؤسسة تروج بيننا فكريا غير قومي في أحسن حالاته ، واستطاع أن يجعل من هؤلاء الخبراء والمستشارين من العلماء العرب متحدثين باسم المؤسسة بل ومدافعين عنها ، وأن يجعل المؤسسة تتولى تنفيذ " مشروع " الكتب الدراسية والمراجع الأمريكية المترجمة لحساب وزارة التربية والتعليم في مصر تنفيذا لتشريع الأمريكي الذي يجيز استخدام جزء من فائض ثمن الأغنية التي تباعها أمريكا في الأغراض الثقافية والتعليمية

حتى وصل الأمر أن توزع المؤسسة على المدارس من كتاب واحد حوالى ٣٦ ألف نسخة ..
بالمجان !!

وعندما يتحدث وكيل وزارة التربية والتعليم فى مصر فى الفترة المشار إليها مثلا وأساتذة فى معاهد المعلمين وكلية التربية وكبار المديرين عن هذه المؤسسة ويحثون المعلمين العرب على قراءة هذه الكتب والاستفادة بها ، وعندما يشيدون بجهود هذه المؤسسة الثقافية ، فإنما يستغلون أسوأ استغلال وأبعثه عملهم ووظائفهم الإشرافية والقيادية وسلطتهم فى الدعاية لمؤسسة أجنبية وفى العمل على تكوين الولاء لها لدى المواطنين من مؤوسسيهم ، وهم يساعدون بذلك على تنمية الثقة لديهم فى هذه الكتب وفى (الثقافة) التى تقدمها ، ويعملون بذلك على أن يزعوا منهم الموقف النقدى إزاء ما يقرعون - أى الموقف الذى ينبغى أن يهود المعلمون قراءتهم عليه - وبالتالي يأمون بصحة ما يقرعون وتبنيه ولا يتخذون موقفا مستقلا فى ثقافتهم (٥١) .

ومن كتاب (الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين) ننقل هذه الفقرات التى تبرز لنا الفلسفة الاستعمارية : "أن منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شئ ..."

" ليس فى أراضى الشرق الأوسط ترسبات معدنية ذات قيمة .. فليس من المحتمل أن يشهد الشرق الأوسط يوما ما ..تقدما فى ميدان الصناعة عدا الصناعات التى تختص باستخراج المنتجات الزراعية (٥٢) .

ومعنى هذا الكلام الذى ترجمه وعنى بالتعليق عليه أساتذة جامعيون أن السياسات العربية للتصنيع نقش على ماء لا طائل منها .

وفى بداية سنة ١٩٥٧ ، والعالم العربى يلقق جراحه من آثار العدوان الثلاثى ، كانت الولايات المتحدة تستعد لأن تحل محل بريطانيا وفرنسا فى منطقتنا عن طريق ما أسمته (مشروع ايزنهار) ، وعن طريق الثقافة حاولوا أن يبرروا المشروع ، فأصدرت الشركة المتحدة للنشر والتوزيع بالقاهرة (غير معروفة المصدر) كتابا بعنوان (مبادئ السياسة الأمريكية) دفاعاً عن الاستعمار الجديد الأمريكى فنقرأ فيه : " ..فالتوسع الأمريكى لا يعنى بالضرورة إنشاء إمبراطورية تقوم على أساس من القوة ..إن الولايات المتحدة فى الحقيقة - لا تستطيع أن تعفى نفسها من مسؤولياتها حتى لو أرادت ذلك .. فالقراغ الناشئ عن تدمير

دول الأمم القوية - ألمانيا واليابان - وضعف بريطانيا وإيطاليا وفرنسا ، يجب أن يملأ ...
وليس لنا فى الواقع خيار فى ذلك^(٥٣) !

٤- المدارس الأجنبية

والكم الأكبر من المدارس الأجنبية التى أنشئت فى أرجاء العالم العربى ، كانت تقيمه الإرساليات التبشيرية ، فضلا عن القوى السياسية المختلفة . والحق أن الدول الغربية ما طرحت إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة أفريقيا أو من الشرق عموما إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس ، ومن ثم تتخلق بأخلاقهم ليمهدوا لها طريق الافتتاح والاستعمار ، علما منها بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم دينية كانت أو فنية ، وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر ، لا يلاعن معارضة أو ممانعة لأن حجتهم نشر العلم والتهنيز ورفع لواء التمدن ، ومتى تأسست المدارس الأجنبية وفتحت أبوابها للراغبين ، استأثر بالتعليم فيها رجالها القادمون لهذه الغاية^(٥٤) .

وتتساءل جريدة (المؤيد) التى كان يصدرها الشيخ على يوسف بالقاهرة فى أوائل القرن العشرين : هل يتصور أن قوما جازوا البحار وتجمشوا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا لديهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟ ثم تجيب على هذا التساؤل بأن ذلك مخالف للبرهان العقلى والدليل النقلى والشواهد المحسوسة . وبطبيعة الحال يصعب علينا القول بأن غرض هذه المدارس هو مجرد التكسب ، ذلك أن بعض هذه المدارس كان يتقاضى من التلميذ دراهم قليلة ، والبعض كان يقبل التلاميذ الفقراء مجانا ، بل إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية فى مملكتها تتفق عليها النفقات الطائلة ولا يكون ذلك عبئا ، فالغرض إذن غرض سياسى بالدرجة الأولى^(٥٥) .

ولا نستطيع أن ننكر أن هذه المدارس قد أخرجت عددا من الخريجين العرب الذين يتقنون اللغات الأجنبية وخاصة اللغتين الإنجليزية والفرنسية ويجيدون التحدث بها وكتابتها ، غير أن هذه المدارس كانت تشكل الشباب العربى تشكيلا يناسب اتجاهاتها وأغراضها سواء أكانت دينية اجتماعية أم سياسية وتوجه تفكيرهم الوجهة التى ترغبها ، فقد كانت بعض الكتب الدراسية التى تقرأها بعض هذه المدارس على تلاميذها موضوعة بطريقة استعمارية لا تتماشى مع الاتجاهات القومية العربية . والثابت مما وجد من كتب فى مكتبات هى المدارس أن كل نوع من أنواع التعليم يتبع دولة معينة لها مصالح خاصة فى البلد العربى ، كان يقوم

بدعاية واسعة لتلك الدولة ، وكانت الكتب التى تعطى لتلاميذ هذا النوع من التعليم تشمل تمجيذا لتلك الدولة ، وشملت بعض الكتب أفكارا كان لها أثرها السئ على تلاميذ هذه المدارس ، فالفكرة التى كانت توجه فى كتب المدارس الأجنبية فى مصر أن مصر بلد زراعى وليس بلدا صناعيا رسبت فى أذهان كثيرين عجز مصر أن نهض نهضة صناعية. كذلك الأفكار الاستعمارية التى كانت توضع فى تلك الكتب لبث الفرقة بين أبناء الوطن العربى وتمجيد الاستعمار والمستعمرين ودراسة تاريخهم بشكل يجدهم ويضع بين يدي التلاميذ صورة واضحة عن تفوقهم المادى والعلمى والأدبى ، هذا مع إغفال تاريخ العرب وعظمة المنطقة وثروتها وحضارتها الأصلية^(٥٦) .

ولهذا نجد خريجي معظم هذه المدارس لا يعرفون عن تاريخ بلادهم وجغرافيتها شيئا فى الوقت الذى يعرفون فيه تفاصيل كافية عن تاريخ الدولة التى تتبعها هذه المدرسة ، فتلاميذ المدارس الإنجليزية مثلا ، كانوا يدرسون تاريخ إنجلترا وجغرافيتها واقتصادها بالتفصيل ، ويخرج التلميذ من هذه المدارس وهو لا يعرف عن بلده شيئا بالمرّة اللهم إلا الأفكار الاستعمارية الخاطئة عنها مما يوجد عرضا فى الكتب التى تتناول تاريخ إنجلترا ، وينكر تاريخ البلد العربى فيها كمستعمرة ومن وجهة النظر الإنجليزية . والتلميذ العربى هنا لا يعرف وجهة النظر العربية لأنه لا يقرأ الكتب العربية ، فهو لم يكن يتقن لغة بلاده من ناحية ولا يكن الاحترام الكافى لهذه الكتب من ناحية أخرى^(٥٧) .

أما من الناحية الاجتماعية ، فإن تنوع التعليم - رغم أنه مرغوب فيه - وتنوع الثقافات المختلفة المتعددة فى التعليم الأجنبى ، قد أثر على الأسر العربية التى توفد أبناءها وبناتها إلى هذه المدارس ، فقد نجد فى المنزل الواحد أن الأم ذات ثقافة أمريكية والأب ذا ثقافة عربية والإبنة ذات ثقافة فرنسية والإبن ذو ثقافة إنجليزية ، وعلى المستوى القومى نجد هناك من يتشيعون للثقافة الفرنسية ومن يتشيعون للأمريكية أو الإنجليزية أو الألمانية .. وهكذا . ولكل منهم تفكيره الخاص واتجاهه الخاص ، وبديهي أن ينشأ من ذلك تعارض كل هذه الثقافات والاتجاهات والعادات فى الأسرة الواحدة .

فإذا ما أردنا الوقوف على أمثلة من الجهود الأجنبية فى إنشاء المدارس ، فنسجد أن مدرسة عينطورة أقدم مدارس الإرساليات فى لبنان إذ أنشئت عام ١٨٣٤ من قبل المبشرين العزاريين ، وبعد ذلك بعام أنشأ القس وليم طومسون الأمريكى مدرسة فى بيروت وأقام

الدكتور كرنيليوس فاندايك مدرسة عالية في عبيه - لبنان. وفي ١٨٤٧ أنشأ المبشرون البروتستانت (الكلية السورية) التي كانت تدرس العلوم باللغة العربية في بداية عهدها (٥٨) .

وبعد حوادث الفتنة الأهلية السورية سنة ١٨٦٠ ، أخذ المبشرون ينشئون المدارس والكليات الكبرى ، ففي سنة ١٨٦٠ ، أنشأت السيدة بوين طومسون (الكلية الإنجيلية الأمريكية للبنات) ، وفي سنة ١٨٦١ أنشئت (الكلية الإنجيلية للبنات) ، وفي سنة ١٨٦٥ تأسست المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ، ثم مدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس في سوق الغرب ، ونقلت هذه عام ١٨٦٦ إلى بيروت ، وأنشأ المطران السيد يوسف الدبس مدرسة (الحكمة) للطائفة المارونية سنة ١٨٦٥ ، كم أنشأ المرسلون الأمريكيان (الكلية الأمريكية) في بيروت سنة ١٨٦٦ بفضل معاعي دانيال بلس أول رئيس للكلية ، وأسس الأباء اليسوعيون (الكلية اليسوعية) في عذير ثم نقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٤ وكانت الحكومة الفرنسية تتفق عليها (٥٩) .

وأسفرا التعليم المدرسى والتربية الأخلاقية اللذين يعنى بهما المبشرون عن نتائج خطيرة وأثمرا ثمرات ملحوظة في الأطفال والمراهقين على حد سواء ، يقول القس (زويمر) الذى قاد جهودا كبيرة في نشر التعليم الأجنبي في الجزيرة العربية ، أنه جمع تلاميذه المسلمين ووضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ثم حول عليها نورا قويا وبرهن لهم بذلك على أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس إيمانا من عند الله لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة في بعض البلاد (٦٠) .

وقد بدأت الخدمة التعليمية للإرسالية الأمريكية العربية في البحرين في نفس الوقت الذى بدأت فيه الخدمة الطبية فيها ، وكانت أول مدرسة للتعليم الحديث على النظام الغربى أنشئت هناك هى المدرسة التى أقامتها الإرسالية في سنة ١٨٩٢ ، والتي افتحتها السيدة س . زويمر S. Zwemer ، وكانت هذه المدرسة هى الأولى من نوعها في منطقة الخليج العربى وليس في البحرين وحدها (٦١) .

وكان الأباء قلقين على أبنائهم خشية أن يتحولوا عن دينهم ، وكان المنهج التعليمى يتألف من اللغة الإنجليزية ، الكتاب المقدس ، الحساب ، اللغة العربية ، وفي مقابلة صحفية مع السيد ناصيف وهو أحد مدرسى الإرسالية القدامى حيث ذكر أن موضوعات المدرسة ، كانت هكذا وأضاف إليها : الحساب ، الجغرافيا ، التاريخ .

وحول طبيعة هذه المدرسة تحدث السيد أحمد إبراهيم أحد أقدم تلاميذ الإرسالية في البحرين حيث قال : " لقد كانت الدراسة اليومية تبدأ عادة بالصلاة المسيحية وقراءة من الإنجيل . والواقع أننا رغم صغر سننا كنا نناقش مدرسينا في ديننا حيث أننا قد تعلمنا الدين الإسلامي في البيت ، وكانت القاعدة الدينية لدينا متينة ، فكان من الصعوبة التأثير علينا دينيا (١٢) .

وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت نموذجاً فريداً ، فهي المركز الرئيسي للإشعاع الفكري الغربي بصفة عامة والأمريكي بصفة خاصة ، خاصة وأن الأغلبية الساحقة من طلبتها عرب . ويسجل التاريخ حقيقة فاجعة هي أن ثلاثة أجيال من المفكرين والأدباء العرب على الأقل ، تلقوا العلم في رحاب هذه الجامعة ، فأثمرت فيهم أخطر ثمار الأيديولوجيا الغربية ، فليست مصادفة على الإطلاق أن تكون منابر (الحرية الليبرالية) والاقتصاد الحر والرأسمالية الشعبية (والأدب غير الملتمزم) و (القوميات الإقليمية الشوفينية) وغيرها من الشعارات والمناهج المعادية لتقدم الوطن العربي وتطوره هي المنابر المدعمة بأموال (فورد) و(روكفلر) و (العلماء العرب) من متقى الجامعة الأمريكية في لبنان (١٣) .

وهناك دراسة خطيرة نشرتها مجلة (ميدل إيست جورنال) المجلد ٦ من / ٤٠ سنة ١٩٨٢ أجراها (ريموند هينيش) الذي كان أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة خلال العام ١٩٨٢/٨١ ثم انتقل ليعمل بجامعة مينيسوتا الأمريكية حول الاتجاهات السياسية لطلاب الجامعة الذين يلاحظ أنهم في الغالب أبناء (الصفوة) في مصر ، وتؤكد النتائج الأثر الخطير لمثل هذه الجامعة على اتجاهات الطلاب الذين يتولون - في أغلب الأحوال وبحكم مواقعهم الطبقيّة الممتازة - مناصب قيادية (١٤) .

- فحين سألهم أيّا من الآتي تعتبره شخصيتك السياسية ، بمعنى لأيّ مجتمع تنتمي ؟
كانت إجاباتهم : مصري (٧٠,٣%) عربي (١١%) مسلم (٩,٦%) .

- وحين سألهم إذا أعطيت الحرية لتختار جنسيتك ، ما هو البلد الذي يمكن أن

تختاره؟

أجابوا : مصر (٧٤%) الولايات المتحدة (٣٥%) العالم العربي (٦,٣%) .

- وعندما سألهم أيّا من الآتي يصف بصنق شخصية مصر السياسية ؟ أجابوا :

*مصر قلب الأمة العربية (٥,٨%)

*مصر جزء من الحضارة الغربية وعالم البحر المتوسط (٣,٩%) .

*مصر أرض الفراغة (٥٣,٩%) .

وبسؤالهم : هل مصر تنتمي إلى العالم العربي أجاب بالرفض (٢٨,٩%) .

وحين سألهم : هل على مصر التزامات تجاه العالم العربي ، أجاب بالموافقة (٢٨,٧%) ويؤكد الباحث الأمريكي أن عملية التفريب قد تركت أثارا بالغة على طبيعة الانتماء التي تميز هذه النخبة وأبناءها ، حيث يلاحظ أن ٦٦% من أبناء النخبة من طلاب الجامعة الأمريكية قد فضلوا العمل بعد التخرج خارج مصر ، وأن ١٣% فقط هم الذين قبلوا العمل بداخلها ولكن بمواصفات وشروط محددة !!

٥- الرحلات :

نقصد بالرحلات هنا تلك (السفريات) التي قام بها مفكرون عرب إلى بلدان الغرب المختلفة لأغراض متعددة ليس منها الحصول على درجة علمية وذلك حتى تميز بينها وبين (البعثات) ، وهناك بالطبع (آلاف) الرحلات التي قام بها عديد من العرب بقصد السياحة أو التجارة أو السياسة أو ما شابه ، فهذه أيضا لا نخصها بالذكر وإن لم تخل من أهمية بالنسبة لموضوعنا ، وقصدنا فقط بعض المفكرين المعروفين .

وممن يصادفوننا في هذا الشأن (أحمد فارس الشدياق) المولود في لبنان سنة ١٨٠٥ على أصح الأقوال^(٦٥) . ويصور الشدياق ولعه بالأسفار فيقول : " هذا وقد كنت في عنفوان شبابي ، وجدة جليبي وازدهار سني ، وازدهار ذهني ، لهجا بالسفر والاعتراب والترحل عن الوطن والأصحاب ، إلى بلد ينضرب فيه غرس وتطيب فيه نفس ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قيسا"^(٦٦) .

ولم يكن الشدياق من أولئك الجوابين الرحالين الذين يمافرون فقط ليقال عنهم أنهم سافروا ، ويجوبون الأقطار ليقال عنهم أنهم جابوا البلاد .. وإنما كان يجوب ليتعلم وليكتسب من أسفاره كل يوم جديدا . ولا تعود فوائد الخبرات عند الرحالة إليه وحده ، بل تعود إلى قومه الذين لا بد أن يزودهم من رحلاته وتجاربه فيها بما يعين على تقدمهم ، فكثيرا ما كان يأسي الشدياق حين يرى أوروبا متقدمة ويرى بلاده متأخرة متخلفة ، وإذا ما سره هناك منظر

أوراقه جانب من جوانب الحياة ، فإن هذه المتعة لا تلبث أن تغص بتفكيره في أمر قومه وما هم عليه من سوء حال .. وما أصدقه وهو يحدثنا عن ذلك في الصفحات الأولى من رحلتيه إلى مالطة وأوربا قاتلا : "ويعلم الله أني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب ، وأدركت فيها من الرغائب ، كنت أبدا منغص العيش مكدره كمن فقد وطره ، ولزمته معسرة ، ولا يروقتي نضار ولا نضرة .. ولا طرب ولا هم ، لما أني كنت دائم التفكير في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن ، والبراعة والتفنن " ، فإذا ما تسلى ساعة بنكر مكارم أخلاق قومه وكرمهم وغيرتهم على العرض ، عاد ثانية إلى التفكير في المصالح المدنية والأسباب المعاشية ، وانتشار المعارف العمومية ، وإلى إتقان الصنائع ، وتعميم الفوائد والمنافع .. ، عاودته الأوجان ، وارتدت إليه الأحزان لخلو بلاده منها ، وأدركته الحسرة على ما فات أوطانه من أسباب تقدمها (٦٧) .

ولقد خرج الشدياق من موازناته بين إنجلترا وفرنسا في منتصف القرن التاسع عشر بتفضيل الثانية على الأولى من حيث استداب الأمن والنظام وندرة حوادث القتل والنظافة ونشاط رجال الشرطة وسرعة استجابتهم ، وكثرة الدكاكين التي لا يخلو منها في باريس موضع ، وتنظيم البغاء والإشراف عليه وخاصة من الناحية الصحية ، وسهولة الاستعارات الخارجية للكتب من المكتبات الملكية ، على حين يضمن الإنجليز بها ، وكثرة المدارس ورخص مصرفاتها " حتى أن الانكليز يبعثون أولادهم إلى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم" (٦٨) .

أما محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) ، (٦٩) فاضطر إلى مغادرة الشام في خريف ١٩٠٨ بعد أن نشر في (المقتبس) ، مقالة أغضبت الوالي العثماني ، فصادر الوالي الصحيفة وأغلق المطبعة ، وزار كرد علي بعض المدن الفرنسية ، ثم سافر إلى الأستانة ، وعاد إلى وطنه في مطلع سنة ١٩٠٩ ، ورحل ثانية إلى إيطاليا سنة ١٩١٣ لمطالعة الكتب والمخطوطات الثمينة في مكتبة المستشرق الإيطالي (ليوني كيتاني) حتى يتمكن من وضع كتابه (خطط الشام) ، ثم توجه إلى سويسرا ، وبعدها زار فرنسا والمجر وأثينا ، وقد ضمن الجزء الأول من كتابه (غرائب الغرب) مشاهداته وانطباعاته في هذه الرحلات كلها ، وبين أن غرضه منها ، كان السياحة والاستجمام فضلا عن البحث والدرس والتقيب للتعرف على حقيقة المدنية الغربية .

إلا أن كرد على قام برحلات معينة رمت إلى غرض لم يستهو رحالينا الآخرين فقد أرسله جمال باشا (ت ١٩٢٢) قائد الجيش الرابع في دمشق مع وفد في رحلة ' علمية إلى استانبول وجناق قلعة سنة ١٩١٥، وكانت غاية الرحلة الدعاية للدولة العثمانية (٧٠).

ونجد كرد على يحيى باريس تحية المفتون المعجب: 'سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان، وملقحة الأذهان بالتقاعى بحب الأوطان، والداعية إلى فك عروش الجبارين والمخربين.. سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة'.

وعندما نكون بإزاء موقف رحالينا من العلوم الغربية، فسوف نجد اختلافا بين الموقف المصرى للبعث والموقف الشامى وذلك وفقا لاختلاف الظروف التي أحاطت بمصر وسوريا، فمصر وقعت في براثن الاحتلال الأجنبي المباشر منذ سنة ١٨٨٢، بينما تأخر ذلك بالنسبة للشام، ومن هنا نجد أن واحدا مثل المولى يوضح أن رقى الشرق قائم على اقتباس العلوم الطبيعية والعملية عن الغرب بقدر ما هو قائم على التمسك بالموروث من الدين والآداب الشرقية، وأكد جرجى زيدان وكرد على أن ارتقاء الشرق يترتب بالدرجة الأولى على تعليم العلوم الغربية (٧١)، وإن كان المولى قد تمسك بالموروث الدينى والأخلاقى حرصا منه على الهوية الشرقية، فرحالتنا الشاميان شعرا بأن توجيه العناية الأولى إلى اقتباس العلوم الغربية لن يفقد العرب هويتهم اليوم، كما أنه لم يفقدوا إياها قديما، فهنضة العرب في عصرهم الذهبى. قامت بفضل التراجمة والنقلة... لا بأيدى علماء الكلام ' فكل من الرحالين الثلاثة تمسك بالماضى حرصا على الهوية، ولكن المصرى المحافظ رأى أن إعادة الماضى يصون هذه الهوية، فيما كان الشاميان أكثر تحررا إذ تمسكا بالماضى فقط ليستتجا منه عبرة التطور المستقبلى (٧٢).

لكن بلاد الشام عند، اكتوت بنيران الاستعمار الغربى، بدأ مفكروها - أو على الأقل بعضهم - يزدون على الموقف المصرى.

ومن الرحالة العرب أيضا نجد أمين الريحانى (١٨٧٦ - ١٩٤٠) المولود في لبنان ثم هاجر في الثانية عشرة من عمره وأقام في الولايات المتحدة، وتعرف بعد ذلك بأوروبا والبلاد العربية، سنة ١٩١٦. كان في فرنسا، ثم زار أسبانيا سنة ١٩١٧، وعلى أثر ذلك كتب مقالته ' نور الأندلس '، وبعض الرسائل، وحوالى سنة ١٩١٨ زار يوكاتان في المكسيك ووضع في الإنجليزية The Land of the Mayas الذى استمر مخطوطاً، ولا

نعلم إن كان قد طبع أم لا . (٧٣) وبين سنة ١٩٢٧ و ١٩٣٩ زار الريحاني الولايات المتحدة مرارا .

وقد طالع الريحاني آداب الغرب قبل تعرفه إلى الأندلس العربي ، بل هداه كارليل الإنجليزي إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ووشنجن آيرفنج إلى روائع الفن العربي في الأندلس ، وقد استشهد الريحاني بكتب غربية في التاريخ والرحلة والتربية والنقد الأدبي ، وقرأ الرومانتيكيين والواقعيين والفقهاء واقعيين : فمن كارليل وإيرفنج وهينى وسرفنتس وهوجو ولامرتيين وغيرهم إلى زولا وبلزاك وتولستوى وجوركي وإيسن ورومان رولان ونجد أثارا كذلك في كتاباته بالفلسفة الغربية ، فقد استشهد بدارون ونيشمه وماكيافيللي وإمرسون ورينان وهكسلي وكاتط (٧٤).

وبالطبع هناك كثيرون من الرحالة .. وهؤلاء الذين نكرناهم مجرد (نماذج) .

٦ - البعثات :

وليس من شك في أن إرسال طلاب من الدول العربية إلى الدول الغربية ليستمروا هناك سنوات عدة لا تقل عن أربع سنوات على وجه التقريب " للتلمذ " على أيدي الأساتذة الغربيين في مختلف العلوم والفنون في داخل معاهد أكاديمية مخصصة للتعليم والبحث ... كان ذلك - في اعتقادنا - أقوى وأرسخ المسالك التي عبرت من خلالها المؤثرات الأجنبية إلى الثقافة العربية.

وقد ابتدأ محمد علي يرسل الطلبة المصريين إلى أوروبا حوالى سنة ١٨١٣ وما بعدها وأول بلاد اتجه إليها فكره ، هي إيطاليا لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وغير ذلك من الفنون ، أما أول بعثة علمية كبرى ، فقد أرسلت إلى فرنسا في يولييه سنة ١٨٢٦ ، وأخذ أعضاؤها ينتظمون في تلك المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون بإشراف المسيو جومار (٧٥).

وعندما سافر رفاعة الطهطاوى إلى باريس رأى من حضارة الغرب ما ارتفع به الغرب على مآثر الأمصار ، فأخذ يحث " ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصناعات ، فإن كمال تلك البلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع ولعمر الله أننى مدة إقامتى بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه " (٧٦) ، وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم ، وتكبيرهم بل وعلمهم ومعرفتهم في الحروب ، وتوسعهم

واختراعهم فيها ، ولولا أن الإسلام منصور ، بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان تلاشى ، بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم ' .

فالرجل يؤمن بتفوق الغرب ، ويدرك أسباب تفوقه ، ويحث بنى وطنه على تلمسه والسعى إليه ، وعلى أهل العلم " حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة " ، فأخذ يعلم ويبشر بالعلم ويدعو إليه ، بعد أن أدرك أن تفوق الغرب على الشرق هو فى تقلمه وتفوقه فى مضممار العلوم والفنون والصنائع أو ما أسماها " العلوم الحكيمية " (٧٧) .

وتوفيق الحكيم يكتب لنا نصاها ما يصور فيه الأثر الأوربى عليه بأنه (إعصار) ، وهو تشبيه حقيقى وتصوير دقيق ، وهو مجرد مثال حدث لغيره مثل ما حدث له من طلاب العلم العرب الذين ذهبوا إلى الغرب ، لكن (روح الفنان) وأسلوب (الأديب) مكناه من أن يصور ويرسم بصدق تعبير .

فهو كان يريد دراسة الدكتوراه - فى بداية الأمر - فى الحقوق فأخذ يدرس الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس ، وقد جره أرسطو إلى دراسة الفلسفة اليونانية ، وكارل ماركس إلى هيغل والفلسفة اليونانية ، وكان التركيز - فيما يقول فى ذلك الوقت - على ماركس بالذات ، للحدث العظيم الذى شغل أوربا وقتئذ ، وهو ثورة روسيا واهتمام مفكرى العالم بهذه التجربة الإنسانية الحية وما تحمل فى طياتها من آمال (٧٨) ، ثم يقول بعد تعداد لبعض الكتب التى قرأها ونرأسها :

" .. ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئا مخيفا ، لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها إعصار هائل قلب كل شئ ... "

ويذهب إلى صديق له وي طرح سؤالا خطيرا : " أجبني حالا : هل تؤمن حقا بالجنة والنار ؟ " ويدهش الصديق من التساؤل ، فيرد الحكيم : " إننا فى مرحلة يجب أن نطرح فيها كل شئ على العقل ليطمئن منا القلب " (٧٩) ، ثم يذكر مرة أخرى :

" .. ولكنى كنت فى بيئة تفكير ، ولأول مرة أشعر بشئ خطير حدث فى حياتى ، هذا الانتقال السريع من عصر إلى عصر : كنت كسمكة النزل الهادئ ، خرجت فجأة إلى موج تبرىق فيه الأفكار وترعد ، وتتخذ فيه العقول صورة الخيول ، تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الإنسانى ، كل حاجز تتخطاه ، وكل عتبة تنقز من فوقها ، والركود

عندها هو الموت ..إذن كنا أمواتا ونحن لا نشعر ، وأحسست بالعقل يتحرك كالهر حديث العهد بالجرى ، فرح بحركة سيقانه يشب عليها ، ويحاول الجرى مع الخيول * (٨٠) .

ووسط عديد من المؤثرات ، نجد طه حسين يقع أسير ما تخلفه الحروب من إحباطات ، فقد صادفته الحرب العالمية الأولى فى فرنسا فيذكر " محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وذابت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة ، فأنا أحيا لغير شئ ، أو قل أنى لا أحيا ، وإنما أنتظر شيئا مجهولا * (٨١) .

لكنه لا ينسى أن يزج بتلك التربية (الجاهلة) التى أحاطت به فى طفولته ، نتاج ثقافة متخلفة وبيئة متردية * .. فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى إلى هذا كله دفعا ، وفرضت هذا كله على فرضنا ، لأنى لم أنشأ نشأة منظمة ، ولم تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مقررة ، وإنما كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب تدفعنى إلى يمين وتدفعنى إلى شمال وتقف بى أحيانا بين ذلك .. * (٨٢) .

وكان للارتباط بالثقافة الفرنسية أثره بعد عودة طه حسين إلى وطنه سنة ١٩١٩ حيث ارتبط بصداقة الكثير من المفكرين المعاصرين ، مثل (اندريه جيد) و (ماسينيون) و (سارتر) و (بول فاليرى) ، وقد حاول أن يؤرخ للأدب الفرنسى فى بعض كتبه .. وله عديد من المقالات يدرسا فيها البيئة الفرنسية والشعراء والفلاسفة الفرنسيين ويترجم بعض القصص والروايات الفرنسية ، وحين عين عميدا لكلية الآداب ، أنشأ قسما جديدا للدراسات الفرنسية على غرار الأقسام فى جامعة السوربون وأتى بكبار الأساتذة الفرنسيين وشجع توجيه البعثات إلى فرنسا .

وتمثل الثقافة الفرنسية عند طه حسين نموذجا رائعا وصورة حية وامتدادا للثقافة اليونانية فى تطور العقل البشرى وأثره العظيم فى كل عصر ، ويقف طه حسين عند الثقافة الفرنسية فى عصر النهضة وأول العصر الحديث بنوع خاص لأنها كانت " معتدلة وحريصة على ألا تقيد المؤلف إلا بمقدار حرصها على أن تلائم بين ما تنتج على ما فيه من التجديد وبين ما هو قائم من النظام والتجديد " لأن الأمة الفرنسية التى هى متأثرة بالطبيعة اللاتينية ومتأثرة بطبيعة هذه الحضارة حضارة البحر المتوسط ، قريبة فى عقلها من اليونانية واللاتينية (٨٣) .

ويبدى لويس عوض إعجابا شديدا بنمط العلاقات بين الجنسين الذى رآه فى إنجلترا وكتب عنه باللهجة العامية راويا تكرياته أيام البعثة ، ويذكره هذا بالوضع فى مصر التى ينتقد ما سماه بالكبت الجنى الشائع " جنسية بتتخر فى عقولنا وبتطفح ع الجلد زى الدمامل . شوفوا الكبت عمل فينا إيه ؟ .. تشوفه فى الفشر الجنى اللى بتسمعه من أصحابك .. كما أنى أقدر أتوفه فى الكمل الفكرى الملازم لأكثر المتعلمين ، وفى القلق اللى اتملك الناس ، والتفكير غير المنظم عند أغلب الشبان .. طبقة الأندية فى مصر دى مش طبقة ، دى مجموعة من العقد النفسية اللى ما فيش أمل فيها إلا بتوجيه جنسى جديد أساسه الحرية المعتتلة والإطلاق اللى مبنى على فهم صحيح^(٨٤) . وكتابة لويس عرض مثل هذا الكتاب باللهجة العامية مظهر واضح (لإقليمية) خطيرة حاولت أن تعزل مصر عن إطارها العربى .

والنص الذى اقتبسناه يمثل رؤيته للجانب الاجتماعى ، أما رؤيته للجانب العلمى والثقافى ، فنجده يقول بنفس اللهجة العامية :

" أى واحد عاش فى كامبردج يقول لك أن الواحد هناك بيتعلم من المحادثة مع الناس أكثر ما بيتعلم من الكتب ، وأن الحياة الاجتماعية نشاطها باين لكل عين .. لكن فيه نشاط تانى مش باين لكل عين . كامبردج مش بس دعوات شامى وحفلات شيرى وسباق قوارب ، دا كلته موجود ، لكن كمان فيه حاجة ثانية موجوده . فيه الجيش الاحتياطى اللى دايمًا يشتغل فى هدوء من الرجالة المرحاتين المدهولين اللى نضارتهم تخينة وشعرهم واقع وما بيحلقوش مرتين فى اليوم . فيه ديدان الكتب اللى تتبش أوراق المكاتب وتحبى الميت وتموت الحى وتمهد السكة للأبطال اللى بينوروا السكة للإنسانية بأفكارهم الجديدة .."^(٨٥)

٧- وسائل الإعلام :

سعت الكنيسة الكاثوليكية الغربية منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر فى ضم الكنيسة الشرقية إليها ، فأرسل البابا إلى المشرق راهبين يسوعيين للاتصال بالطائفة المارونية ، وظل الراهبان سنة كاملة درسا خلالها حالة لبنان الدينية والاجتماعية ، ثم قفلا راجعين إلى روما بصحبة تلميذين أحدهما من لبنان والآخر من قبرص ، واقترح الراهبان على البابا قبول الشبان الذين يرشحون أنفسهم للكهنوت تلاميذ فى الكليات الأكاديمية بروما ، وتأسيس مطبعة فى تلك المدينة لنشر الكتب العربية والسريانية التى تحتاج إليها الكنيسة المارونية ، ووافق البابا على الاقتراحين ، ومن المرجح أن تكون المطبعة البابوية قد بدأت

عملها فى سنة ١٥٨٣ ، أما مطبعة الراهبين اليسوعيين ، فقد جهزت بالحروف العربية والسريرية وتم لها طبع النص العربى من كتاب التعليم المسيحى سنة ١٥٨٠ (٨٦) .

وقد استطاع الرهبان الذين ابتعثوا إلى روما إقناع البطريرك المارونى بتأسيس أول مطبعة فى لبنان بدير قزحيا وبإنشاء مدرسة سيدة حوقة الاكليريكية^(٨٧) .

وفى سنة ١٨٢٢ اتخذ المبشرون الأمريكيون جزيرة مالطة قاعدة لنشاطهم فى الشرق الألىنى . ولما كانت الطباعة وسيلة للدعاية لا يمكن الاستغناء عنها ، فقد قرر مجلس الإرسالية فى أمريكا تأسيس مطبعة فى تلك الجزيرة لتعنى بنشر الكتب والكراسات للتبشير بدين المسيح حسب المذهب البروتستانتى ، واستمرت المطبعة فى عملها اثنتى عشرة سنة أخرجت خلالها ٣٥٠ ألف نسخة من كتب وكراريس ، ثم نقل القسم العربى إلى بيروت سنة ١٨٣٤ (٨٨) .

وكان المبشرون الأمريكيون أو البروتستانت يزرعون لبنان طولاً وعرضاً ، يوزعون منشوراتهم ويؤسسون المدارس لجذب الناس ، ومن هنا كان على اليسوعيين الكاثوليك أن يفعلوا على الأكل مثلما يفعل مناقسوم ، فقاموا يواجهون الدعاية بالدعاية ، ولما كانت الدعاية لا تستقيم إلا بمطبعة نقد أنشأوا هم الآخريين سنة ١٨٤٨ مطبعة كانت إيذاناً ببداية نهر جديد لإغريق المنطقة بسيل من المطبوعات المبشرة بالثقافة الغربية من خلال اتجاه من اتجاهاتها^(٨٩) .

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى اهتمام نابليون بقضية (الإعلام) وجاء معه بمطبعة وكيف أنشأ صحيفتين لبث الأفكار الفرنسية فى مصر .

وشهدت المرحلة التى تلت انعقاد المؤتمر الصهيونى فى الأول فى بال سنة ١٨٩٧ ظهور نوعين من الصحف اليهودية فى مصر أولها الصحف الصهيونية التى أصدرتها الهيئات والجمعيات الصهيونية باللغة العربية والفرنسية فى المجتمع المصرى ، والنوع الثانى الصحف اليهودية التى أصدرتها الطائفة اليهودية بمصر ، وكانت ذات انتماء صهيونى ، ولكن تفاوتت درجات هذا الانتماء ومستوى التعبير عنه .

وفىما يتعلق بالنوع الأول ، فقد ارتبط ببدء ظهور النشاط الصهيونى فى مصر حيث بدأت تتكون الجمعيات الصهيونية التى كان لابد لها من تجسيد دعوتها وأفكارها فى صحف

ونشرات عدا أنواع النشاطات الدعائية الأخرى . وقد حاولت الجمعيات الصهيونية النفاذ إلى بعض الصحف التي تبنت وجهة النظر الصهيونية وأقرت صفحاتها للدفاع عنها ، وتأتى المقطع فى مقدمة هذه الصحف ، وكذلك المقطع (٩٠) .

وكان صدور وعد بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ بمثابة نقلة هائلة للصحافة الصهيونية فى مصر ، إذ انتقلت التنظيمات الصهيونية من مرحلة الاعتماد على الصحف الحليفة سواء المصرية أو اليهودية إلى إصدار صحفها الخاصة بها المعبرة فى سفور عن آرائها الصهيونية (٩١) .

ولما بدأ الحس القومى العربى يستيقظ فى مصر منذ الثلاثينات إلى أوائل الأربعينات لجأت الصهيونية إلى وسائل أخرى خفية ، فقد فوجئ الرأى العام بصدور مجلة ثقافية ضمت نخبة من كبار المنقذين المصريين بتمويل يهودى صهيونى وتحمل واجهة حضارية لا تحمل أثاره الشكوك حول انتمائها أو هويتها الحقيقية ، تلك المجلة هى (الكاتب المصرى) التى صدرت فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وكان يرأس تحريرها طه حسين ، وقد ضمت طائفة من الكتاب الأوربيين والأمريكيين ، إلى جانب الكتاب المصريين أمثال توفيق الحكيم ولويس عوض وسهير القلماوى وحسين فوزى وفؤاد صروف ونجيب الهلالى ويحىى الخشاب ويحىى حقى وشوقى ضيف ، ومن الملاحظ أن كثيرا من كتابها كانوا ممن لا يتعاطفون بوضوح مع القضية العربية القومية (٩٢) .

وقد تعرضت مجلة الكاتب المصرى لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف المصرية متهمة إياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وأن الهدف من إصدارها هو العمل على استقطاب المنقذين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم إزاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

وكما حدث بالنسبة لمجلة الكاتب المصرى فى مصر ، حدث شئ مماثل لمجلة (حوار) التى كانت تصدر فى بيروت ، ففى العدد الصادر فى ٢٨ / ٤ / ١٩٦٦ من جريدة (النيويورك تايمز) الأمريكية أن هذه المجلة التى ظلت عدة سنوات تنشر لعدد كبير من منقضى العالم العربى المقالات والدراسات كانت لها علاقة بالمنظمة العالمية لحرية الثقافة حيث كانت تتولى إصدارها ، وأن هذه المنظمة لها صلة وثيقة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

وقبل ذلك كانت مجلة (الكاتب) المصرية قد (فضحت) هذه العلاقة فى عددها الصادر فى ديسمبر ١٩٦٥ حيث ذكرت أن هذه المنظمة لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات التى تعمل لحساب وكالة المخابرات المركزية ، وأكدت الكاتب أن هذه المنظمة مجرد قناع من الأقنعة المتعددة التى تفسر تحتها الوكالة والتى من بينها الأقنعة الثقافية .

وكان الدكتور لويس عوض قد حاول طوال سنتى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ أن يدافع عن (حوار) حين كانت الحملة مستمرة من حولها ، إلا أنه بعد جملة التحقيقات التى نشرتها النيويورك تايمز حيث أثارت ضجة عالمية وطيرتها وكالات الأنباء ونشرت جريدة الأهرام تلخيصاً مطولاً لها فى أكثر من عدد ، اضطر إلى أن يهاجمها هو الآخر إلى الحد الذى جعله يطالب فى حديث مع مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر فى ١٥ / ٨ / ١٩٦٦ بمنعها من دخول مصر^(٩٤)!!

وشهدت سوق بيروت سبلا من المجلات الموجهة إلى الأطفال وصغار الشباب العربى توجههم توجيهها سينا ، فإذا كان أطفالنا تستهويهم مغامرات " سوبرمان البطل الجبار " ، فليقرأوا إذن مجلة " سوبرمان " تصدر عن شركة المطبوعات المصورة ، وإذا كان صبياننا ولعون بمغامرات الرجل الطوطا باتمان فلتصدر لهم مجلة (الطوطا) عن نفس الشركة السابقة ، وإذا كان شبابنا مغرم بالعمل السرى " جيمس بوند " فليقرأ بنهم المجلة المتخصصة جدا " الجواسيس " عن دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة ، ولن نستطيع أن نحصر عدد المجلات اللبنانية ، من حيث المظهر الأمريكية ، من حيث الجوهر ، المجلات التى تسمى نفسها (المغامر) أو (الأبطال) أو غير ذلك من الأسماء التى تستهوى أعمار أبنائنا الغضة ، وتستهدف تشنثهم على هذا المثال الذى ترسمه المخابرات الأمريكية^(٩٥). ولعل ما أتاح لهذه المجلات أن تظهر فى صورة سيل جارف ، هو أن السوق الوطنية تكاد تخلو من مجلات جادة للأطفال .

ومن أهم المجالات الإعلامية ، السينما ، ومن أخطر الكتب التى تكشف عن الدور الأمريكى كتاب كتبه المخرج كامل التلمسانى بعنوان (سفير أمريكا بالألوان الطبيعية) كان مما جاء فيه^(٩٦) " أن نصف قرن من تطور صناعة الفيلم الأمريكى ، يمثل فى نفس الوقت الفترة الاستعمارية الأمريكية وقد تمشى تطور صناعة السينما الأمريكية مع المصالح الاحتكارية .. فالدعاية للحرب والفتح ، وسيادة الجنس الأبيض واضطهاد شعوب

المستعمرات .. هذه هي معالم أيديولوجيا السينما الأمريكية .. صحيح أن بعض التغييرات التى كانت تطرأ على موقف الرأسمالية الأمريكية خلال هذه الفترة نتيجة لموامل اجتماعية واقتصادية حتمت ظهور هذه التغييرات .. وبالتالي انعمكت على مضمون الفيلم الأمريكى .. كما حدث فى عهد روزفلت .. ولكن هذه التغييرات كانت مؤقتة .. فما أن تمخضت الحرب العالمية الثانية عن خطة عدوانية جديدة تهدف إلى سيطرة أمريكا على العالم بالقوة المسلحة .. حتى أصبح الاحتكار الأمريكى فى حاجة إلى السيطرة على نوع الثقافة والأفكار التى يتضمنها الفيلم الأمريكى .

ومن كلية التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة صدرت مجلة (التربية الحديثة) واستمرت من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٧٢ وطوال الفترة من ٢٨-١٩٦٦ كان يوجهها د.أمير بقطر ، ولعل بعض الأمثلة لسياسة هذا الرجل توضح لنا الدور الذى لعبته هذه المجلة التربوية ، فهو قد تلقى دراسته الابتدائية والثانوية فى كلية الأمريكان بأسبوط حيث كانت الدراسة كلها باللغة الإنجليزية ، ثم حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة كولومبيا بأمريكا وعين بعد عودته فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ثم ظل يترقى إلى أن أصبح عميدا لكلية التربية بها (٩٧) .

ونجد أمير بقطر يكتب فى هذه المجلة موضوعات مثيرة لم يكن رأى العام مهينا لمناقشتها بهذه الصورة التى أثارها لأنها كانت تتعلق بالشذوذ الجنسى والانحرافات النفسية والخلقية ، وكان أسلوبه يجنح إلى تملق عرائز القراء (مقال أبو الفتوح رضوان) .

كما نلاحظ أنه يصدر عددا فى إبريل سنة ١٩٣٧ يهاجم فيها الذين يرفضون اختلاط الجنسين فى معاهد التعليم " أما ما يحلو للبعض التشدق به ارتكانا على ما يسمونه التقاليد (الشرقية) فإنه شئشنة ألفناها ومجتها أسماعا " (مقال فيليب صابر) ، وكان يقصد الاختلاط فى التعليم الثانوى ولو لاحظنا زمن صدور هذه الكلمات لأدركنا خطورة هذه الآراء.

وفى عام ١٩٥٣/٥٢ كان بقطر أستاذنا زائرا بالولايات المتحدة فكتب فى إبريل سنة ١٩٥٣ مقالا يبرز فيه عظمة المعلم الأمريكى وقلما يخلو عدد من مقال عن تجربة رائدة فى أمريكا أو بحث أجرى فيها ، أو أخبار أو تعليقات !

٨- الترجمة :

كان السقاء الشرق بالغرب فى القرن التاسع عشر ، سببا فى أن يدخل إلى البلاد العربية كثير من مظاهر الحضارة الأوربية وأدواتها ، وهى أشياء لم يكن للعرب المحدثين سابق اتصال بها ، ولا إطلاع عليها ولا استعمال لها ، ومن هنا اقتضت الضرورة أن يكون لهذه الأثنياء الحديثة فى المعجم العربى الحديث وفى الاستعمال الشائع ألفاظ عربية أو معربة تحدد معانيها وتدل عليها .

وقد سبق للعرب مثل هذه التجربة فى حركة الترجمة والنقل فى العصر العباسى ، حيث بدأ النقلة والمترجمون يضعون منات ومئات الألفاظ لمسميات جديدة طرأت عليهم باختلاطهم مع الأعاجم سواء أكانوا من الفرس أم الروم أم الأبحاش أم غيرهم . ولم يكن هذا دور النقلة والمترجمين وحده ولكنهم نقلوا العبارات الأجنبية إلى عبارات عربية ولهذا جمعت الترجمة بين ترجمة الألفاظ وترجمة الأساليب (٩٨) .

والذى حدث فى العصر العباسى حدث فى البلاد العربية فى القرن الماضى ، حدث فى مصر ، وحدث فى الشام ، وحدث فى كل وطن عربى استجبت فيه مظاهر جديدة للاختلاط بالأوربيين والنقل عنهم . وقد بدأت حركة الترجمة فى بلاد الشام فى مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنها اقتصررت فى بادئ الأمر على الكتب الدينية واتخذت طابعا فرديا غير منظم ، ثم بدأت هذه الحركة بداية تكاد لا تذكر فى عهد الحملة الفرنسية على مصر حيث ترجمت وصايا لقمان الحكيم Fable de Loqman Surnomme le Sage باللغة العربية ومعها ترجمتها الفرنسية فى مطبعة الحملة فى كتاب صغير من ١٢٠ صفحة ، وكذلك رسالة فى مرض الجدرى تأليف (ديجينيت) Desgenettes كبير أطباء الحملة ، وترجمة الأب رفائيل زاحور ، طبعت باللغتين الفرنسية والعربية فى ٤٣ صفحة (٩٩) .

واعتمد محمد على على الترجمة وسيلة أساسية فى تحديث مصر ، وكانت الدولة عندما تقرر فتح مدرسة تنقل مناهجها عن مدرسة مماثلة فى الخارج ، وتحضر مع المناهج مجموعة من الكتب المستخدمة هناك ، وتكلف المترجمين ترجمتها لتكون فى أيدى الطلاب كخطوة أولى فى سبيل إنشاء المدرسة ، وهكذا نشأت حركة ترجمة ، لم يكن هدفها ترجمة الكتاب أى كتاب ، وإنما كان هدفها ترجمة الكتب المدرسية بالذات ، فقد نشأت حركة ترجمة للكتب لا من حيث هى معرفة كما حدث فى المجتمع العربى فى صدر الإسلام ولكن طلبا

لوسيلة تنشئ جيلا جديدا من شباب الأمة ولذلك انصبت حركة الترجمة حول الكتاب المدرسى (١٠٠) .

والمأمل فى جملة الكتب التى ترجمت يجد أن أكثر ما ترجم كان فى الفنون الحربية والبحرية فقد ترجم فيها (١١ كتابا) ، وهذا أمر يدهى لا يحتاج إلى تعليل ، فالجهود الحربية استنفدت معظم وقت محمد على وحكومته ، ولى هذه الفنون ، الطب البشرى فقد ترجم فيه ٣٤ كتابا وذلك للصلة الوثيقة بين مدرسة الطب والجيش ، أما الطب البيطرى ، فقد ترجم فيه ١٢ كتابا ، والعلوم الرياضية بفروعها المختلفة ترجم منها ٣١ كتابا .

أما الدراسات الأوربية ، فلم تبلغ من العناية قدر ما لقيت العلوم والفنون العملية ، رجع هذا ، فقد كان التاريخ أكثرها ، فترجم فيه ٢٤ كتابا ، وتليه الجغرافيا وما يتصل بها من علوم كالرحلات والجيولوجيا وترجمت فيها ٨ كتب ، أما الأدب فقد ترجم فيه كتاب والاجتماع كتاب والمنطق كتاب (١٠١) .

وكان محمد على يرى أن أول واجب على أعضاء البعثات ، ترجمة كتب العلوم التى درسوها فى أوربا ، فكان أول عمل يسند إليهم ، إمدادهم بالكتب والتبنيه عليهم بسرعة ترجمتها ، وكانت الحكومة تعلق على أعمال الترجمة أهمية كبرى لكى تظهر بأكثر عدد من الكتب المترجمة فى أقل زمن حتى أصبحت الترجمة تشغل الموظفين عن أعمالهم ، ثم ظهر أن بعض المترجمين لم يكن لهم من حلق اللغات الأجنبية والعربية ، والقدرة على التحرير والكتابة ما يمكنهم من ترجمة ما عهد به إليهم ترجمة صحيحة ، فدعا ذلك إلى التفكير فى حل يخفف عن أعضاء البعثات هذا العبء ، ويضمن وجود طبقة من العلماء والأفكار فى الآداب العربية وفى آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأجنبية ، وليكونوا صلة بين الثقافة العربية والغربية ، وينهضوا بالأداة الحكومية فيما يعهد به إليهم من المناصب (١٠٢) .

وكان أن عرض رفاعة الطهطاوى على محمد على أن يؤسس مدرسة الألسن سميت عند إنشائها سنة ١٨٣٥ مدرسة المترجمين ثم غير اسمها فصار مدرسة الألسن ، وأصبح الغرض منها تخريج مترجمين (١٠٣) .

وقد بذل الطهطاوى نفسه جهودا كبيرة فى ترجمة عديد من الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية ، واعتبر المفكرون الذين ظهوروا فيما بعد أن الترجمة جزء أساسى من رسالة المفكر

لأمتة وتلاميذه ودعما لأفكاره التي ينادى بها ، وهي واجب على كل قادر عليها في عصر اليقظة والنهوض ، فالحضارة تراث الإنسانية الباهر ، تضيف إليه كل يوم جديد وتطوره كل يوم إلى الغاية المرجاة من كمال الحياة ، غير أن بعض الأمم تسبق غيرها في مضمار التقدم والارتقاء ، وعلى الأمم التي تخلفت أن تلحق بالسابق منها في هذا المضمار ، والترجمة وسيلة أساسية لتحقيق هذا الغرض ، ورأى واحد مثل لطفى السيد أن الترجمة أنفع من التأليف في بداية النهضة ، فالتأليف لا بد وأن يستند إلى فكر ومعرفة ، وما من سبيل: إليها في مراحلها المتقدمة إلا عند الأمم السابرة إلى الحضارة والتمدن ، إلا أن يكون إحياء للماضى ، ومهما يكن فى الماضى من حياة وغناء ، فليس هناك غنى عن متابعة التطور والتقدم وإلا وقف العقل البشرى عند حدود القديم وحده مما ينتهى به إلى الجمود (١٠٤) !!

ومن أهم المترجمين فى أواخر القرن التاسع عشر ، فتى زغلول ، شفيق الزعيم المعروف سعد زغلول ، فمنذ سنة ١٨٨٢ ، عندما نكبت مصر بالاحتلال البريطانى ، كان يرى الأمة تتقلب فى أحوال متناقضة مهمة ، فكانت تسوء هذه الأحوال ، ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج .. كان يود لو تترك الأمة أن إيهام الغرض وعدم إدراكه بوضوح يجعله مستحيل المنال ، لذلك أراد أن يقدم للجمهور (العقد الاجتماعى) لروسو حتى يتبين الجمهور حق الأمة وما يجب أن يكون لها من السلطان . وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغا كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصول الحقوق والواجبات ، وكذلك ترجم (سر تقدم الإنجليز السكسون) لريمون ديمولان ، و(الفرد ضد المملكة) لسبنسر و (سر تطور الأمم) لجوستاف لوبون و(روح الاجتماع) لنفس المؤلف .. وهكذا .

وعمد أحمد لطفى السيد إلى عدد من كتب أرسطو فقام بترجمتها إلى العربية معللا ذلك بأن النهضة الأوروبية لم تقم إلا بعد أن عمد رجالها على درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة ، ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم أن أراءه ومذهبه أبسط المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية (١٠٥) .

وبعد الحرب العالمية الثانية وبروز الولايات المتحدة قوة عظمى تريد أن تخلف الاستعمار القديم الممثل في إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، بدأت تساعد وتغذى عملية ترجمة لعدد ضخم من الكتب الأمريكية ، وحظى ميدان التربية والتعليم بالعناية الأكبر لما هو معروف من خطورة العملية التربوية كعملية تشكيل وتكوين الإنسان ، وكانت مؤسسة فرانكلين هي الوسيط الأساسى حيث عمدت إلى إشراك عدد كبير من قيادات تعليمية حتى تيسر لها نشر هذه الترجمات فى مختلف المدارس .

وحظى جون ديرى فيلسوف التربية الأمريكية الأولى بنصيب الأسد فى الكتب التى ترجمت له ، إذ ترجمت كتبه : (الديمقراطية والتربية) و (الخبرة التربوية) و (المدرسة والمجتمع) و (الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنسانى) و (البحث عن اليقين) و (المنطلق نظرية البحث) و (الفن خبرة) و (الحرية والثقافة) و (تجديد فى الفلسفة) ، و (التربية فى العالم الحديث) . فضلا عن ترجمات لبعض تلاميذه مثل (كلباتريك) فى (المدينة المتغيرة والتربية) و كارلتون واشبورن (التربية التقدمية) ، والمؤسس الثانى للبراجماتية (الأول " بيرس ") وليم جيمس - ترجم له (أحاديث إلى المعلمين) و (إرادة الاعتقاد) و (البراجماتية) .

وكانت هناك أيضا سلسلة باسم دراسات سيكلوجية ، وعلم النفس للأباء والمدرسين صدرت منها عشرات الأجزاء ، وسلسلة (الثقافة العائلية) ، بإشراف وكيل لوزارة التربية فى مصر ، وسلسلة (بحوث تربوية فى خدمة المعلم) وهى ترجمة لبحوث أمريكية تصدرها إدارة معلمى الفصول بالجمعية القومية للتربية الأمريكية والجمعية الأمريكية للبحوث التربوية ، وسلسلة (التعليم فى ضوء التجارب) ، وسلسلة (العلاقات الإنسانية) (١٠٦) .. وهكذا

وإذا كانت هذه السلاسل تستهدف تقديم المبادئ والأسس النفسية والفكرية والمهنية التى يربى المعلمون أبنائنا عليها ووفقا لها ، فإن هناك مجموعة أخرى من السلاسل التى تتناسب كل منها قراء من سن صغيرة ، وهى تستهدف تقديم المعلومات التى يتعلمها التلاميذ فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهى عادة كتب فى العلوم مثل (الف باء ..) لتقريب المعرفة إلى النشء و (كتابك الأول عن ...) والعلوم المبسطة ، وهى للمرحلة

الإعدادية ، وسلسلة (كل شئ عن ..) و (معالم الطريق) و (حول العالم فى كتب) مما يناسب المرحلة الثانوية .

وهذه السلاسل وغيرها من الكتب والقصاص التى أصدرتها المؤسسة تبدى اهتماما فائق الحد بأطفالنا وما يعلم لهم وما يجب أن يعرفوه وما لا يجب أن يعرفوه ، وتقدم لهم ذلك فى أعظم إخراج وأجوده .. بل وتقدم لهم ولشبابنا الكتب العلمية فى شتى الموضوعات التى تفقر إليها المكتبة العربية وتشبع حاجتهم إلى المعرفة فعلا .. ولكن عن طريق أمريكى .

وبعد نكسة ١٩٦٧ بدأ مركز الترجمة ينتقل بقوة أكبر إلى بيروت من القاهرة وبدأت بعض كتب التربية الفرنسية تترجم إلى العربية وكذلك الأمر بالنسبة للتربية فى الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكى ، لكنها ما زالت محدودة للغاية ، وعلى مفكر واحد من البرازيل وهو (باولو فرير) بترجمة كتابه (تعليم المقهورين) ، وكتب أخرى ، ونستطيع أن نقول أن جهود الترجمة فى التربية والتعليم قد أصبحت أقل منذ السبعينات عنها قبل ذلك .

وربما تمثل مجلة عرفت أولا باسم (مستقبل التربية) ، ثم (مستقبليات) التى يصدرها مكتب مطبوعات اليونسكو بالقاهرة المنفذ الأساسى الآن لترجمة (المقالات) ومى دورية فصلية ، والميزة الأساسية فيها أنها تقدم أنواعا مختلفة من الفكر التربوى خارج العالم العربى ، وإن كان يقلل من هذا أن الترجمة مع الأسف الشديد على مستوى سئ إلى حد كبير .

الهوامش

- (١) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ ، ص ت
- (٢) جمال الدين السبيل : الذكاء والوراثة ، مجلة العلوم ، القاهرة ، المنعة السادسة ، العددان الخامس والسادس ، يونية ١٩٣٩ ، ص ٤٤١-٤٤٥ .
- (٣) الشيال : تاريخ الترجمة ، مرجع سابق . ص ٦ .
- (٤) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإرادة التكامل القومى ، القاهرة دار الموقف العربى ، ١٩٨٣ ، ص ص ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
- (٥) محمد الغزالى : ظلام من الغرب ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٤ .
- (٦) فؤاد زكريا : آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣ .
- (٧) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، د.ت ، ص ٧٥
- (٩) لوتروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، نقله إلى عجاج نويهض ، والمقتبسات من تعليقات شكيب أرسلان على الكتاب ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧١ ، م ١ ، ص ٢١٥ .
- (٩) المرجع السابق . ص ٢١٦ .
- (١٠) حسين فوزى النجار : رفاة الطهطاوى ، سلسلة أعلام العرب ، العدد (٢٥٣) ، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت ص ٢٨ .
- (١١) المرجع السابق . ص ٢٩ .
- (١٢) صبحى وحيدة ، ص ١٥٩ .
- (١٣) المرجع السابق . ص ١٦٠ .
- (١٤) إبراهيم أبو لغد : الاستعمار ، أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، فى : وقائع الندرة التى عقدها جمعية الخريجين بجامعة الكويت فى الفترة ما بين ٧-١٢ أبريل ١٩٧٤ ، الكويت بعنوان : أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، ص ١٢٦ .
- (١٥) المرجع السابق . نفس الصفحة .
- (١٦) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ، بيروت ، الدار العلمية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣
- (١٧) المرجع السابق . ص ٢٥ .
- (١٨) المرجع السابق . ص ٢٩ .

- (١٩) المرجع السابق . ص ٣٠ .
- (٢٠) حسن فوزى النجار ، رفاة الطهطاوى ، ص ٢٩ .
- (٢١) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد (٢١٥) ، فبراير ١٩٦٥ ، ج١ ، ص ١٠٥ .
- (٢٢) المرجع السابق . ص ٩٥ .
- (٢٣) أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة فى مصر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٦ .
- (٢٤) المرجع السابق : ص ٣٧ .
- (٢٥) صلاح الدين البستاني : صحف بونابرت فى مصر (كوربيه دى ليجييت) ، القاهرة ، دار العرب للبستاني ، ١٩٧١ ، ص/ح .
- (٢٦) المرجع السابق . المجلد الخاص بجريدة (لانيكاد أيجيسيين) ، م١ ، ص ١٢ .
- (٢٧) ج . كرسstofر هيروولد : بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، د.ت ، ص ٢٤٣ .
- (٢٨) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت ، ص ٦١٥ .
- (٢٩) المرجع السابق . ص ٦١٢ .
- (٣٠) الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ١٨ .
- (٣١) المرجع السابق ، ص ١٩ وما بعدها .
- (٣٢) بونابرت فى مصر ، ص ٢٣٨ .
- (٣٣) على المحافظنة : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤ ، بيروت - الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٨ ، ص ٣٢ .
- (٣٤) حامد ربيع ، مرجع سابق . ص ٢٩ .
- (٣٥) محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ ، ص ١٠١ .
- (٣٦) غفاف صبرة : المستشرق ومشكلات الحضارة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ ،
- (٣٧) المرجع السابق . ص ٣٢ .

- (٣٨) السياسة اليومية ، القاهرة ، فى ١٩٢٦/٣/٢٧ .
- (٣٩) عفاف صبره : المستشرق ومشكلات الحضارة ، ص ٣٩ .
- (٤٠) إبراهيم خليل أحمد : المستشرقون فى العالم الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣٨ .
- (٤١) مصطفى خالدى وزميله : التبشير والاستعمار ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧ .
- (٤٢) عفاف صبره ، ص ٤٠ .
- (٤٣) أزل ثنائيه : الغارة على العالم الإسلامى ، لخصها ونقلها إلى العربية مساعد إليافى وزميلة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٣٢ .
- (٤٤) على المحافظة ، مرجع سابق . ص ٢٥ .
- (٤٥) المرجع السابق . ص ٢٦ .
- (٤٦) عبد المالك خلف التميمى : التبشير فى منطقة الخليج العربى ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦ .
- (٤٧) المرجع السابق ، ص ٥٦ .
- (٤٨) المرجع السابق . ص ٧٤ .
- (٤٩) عبد الجليل حسن : فرانكلين وتخريب الثقافة العربية ، مجلة الكاتب ، القاهرة ، العدد ٧٠ / يناير ١٩٦٧ ، ص ٧١ .
- (٥٠) المرجع السابق . ص ٧٢ .
- (٥١) المرجع السابق . ص ٧٣ .
- (٥٢) فتحى خليل : دفاع عن الثقافة العربية ، القاهرة ، دار الفجر الجديد للنشر والترجمة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٠ .
- (٥٣) المرجع السابق . ص ٥٢ .
- (٥٤) سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٥ ، ص ٤٣٩ .
- (٥٥) المرجع السابق . ص ٤٤ .
- (٥٦) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ ، ص ١٢٦ .
- (٥٧) المرجع السابق . ص ١٢٧ .
- (٥٨) على المحافظة ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

- (٥٩) المرجع السابق . ص ٢٦ .
- (٦٠) الفارة على العالم الإسلامى ، ص ٥٨ .
- (٦١) التيمى : التبشير فى منطقة الخليج العربى ، ص ١٧٦ .
- (٦٢) المرجع السابق . ص ١٧٧ .
- (٦٣) غالى شكرى : أمريكا والحرب الفكرية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، د.ت ص ٢٨ .
- (٦٤) رفعت سيد أحمد : اختراق العقل المصرى ، القاهرة - بدون ناشر ، ١٩٨٥ ، ص ٤١ .
- (٦٥) محمد عبد الغنى حسن : أحمد فارس الشدياق ، سلسلة أعلام العرب ، العدد (٥) القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د.ت ، ص ع .
- (٦٦) المرجع السابق . ص ٤٩ .
- (٦٧) المرجع السابق . ص ٥٢-٥٣ .
- (٦٨) المرجع السابق . ص ٥٥ .
- (٦٩) نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٤ .
- (٧٠) المرجع السابق . ص ١٦٥ .
- (٧١) المرجع السابق . ص ٢٧٢ .
- (٧٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .
- (٧٣) المرجع السابق . ص ٣٠٦ .
- (٧٤) المرجع السابق ص ٣١٤ .
- (٧٥) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨ ، ص ٤٣٥ .
- (٧٦) النجار : الطهطاوى ، مرجع سابق ص ٤٧ .
- (٧٧) المرجع السابق ص ٤٨ .
- (٧٨) توفيق الحكيم : مصر بين عهدين ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٨٣ ، ص ٤٠ .
- (٧٩) المرجع السابق ص ٤٢ .
- (٨٠) المرجع السابق . ص ٤٣ .
- (٨١) طه حسين : أديب ، القاهرة ، سلسلة كتب للجميع ، د.ت ، ص ١٣١ .
- (٨٢) المرجع السابق . ص ١٣٢ .

- (٨٣) عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٤٠ .
- (٨٤) لويس عوض : منكرات طالب بعثة ، القاهرة ، مؤسسة روزاليوسف ، سلسلة الكتاب الذهبى ، نوفمبر ١٩٦٥ ، ص ١١٣ .
- (٨٥) المرجع السابق . ص ١٧٧ .
- (٨٦) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ٣٥ .
- (٨٧) المرجع السابق ص ٣٦ .
- (٨٨) المرجع السابق . ص ٤٧ ، ٤٨ .
- (٨٩) المرجع السابق . ص ٥١ .
- (٩٠) عواطف عبد الرحمن : الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ - ٩٥٤ ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ .
- (٩١) المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٩٢) المرجع السابق ص ٤٣ .
- (٩٣) عبد الجليل حسن : هامش آخر حول حقيقة مجلة حوار ، مجلة الكاتب ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٦٦ ، العدد ٦٦ ، ص ٧١ - ٧٥ .
- (٩٤) غالى شكرى : أمريكا والحرب الفكرية ، ص ٣٧ ، ٣٩ .
- (٩٥) فتحى خليل : دفاع عن الثقافة العربية ، ص ٥٦ .
- (٩٦) انظر العدد الخاص الذى أصدرته مجلة التربية الحديثة بمناسبة وفاته ، القاهرة الجامعة الأمريكية ، ديسمبر سنة ١٩٦٦ ، صفحات متفرقة .
- (٩٧) محمد عبد الغنى حسن : أحمد فارس الشدياق ، ص ١٤٣ .
- (٩٨) الثيبال : تاريخ الترجمة فى مصر ، ص ٨١ ، ٨٢ .
- (٩٩) سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، ص ٣٠٣ .
- (١٠٠) المرجع السابق . ص ٣٠٤ .
- (١٠١) أحمد أحمد بدرى : رفاة الطهطاوى بك ، القاهرة ، لجنة البيان العربى ، ١٩٥٠ ، ص ٣٨ .
- (١٠٢) المرجع السابق . ص ٣٩ .
- (١٠٣) حسين فوزى النجار : أحمد لطفى السيد ، سلسلة أعلام العرب (٣٩) القاهرة ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ، ص ٨٧ .
- (١٠٤) المرجع السابق . ص ٨٤ .
- (١٠٥) مجلة الكاتب ، العدد ٧٠ ، يناير ١٩٦٧ ، ص ٧٥ .
- (١٠٦) المرجع السابق . ص ٧٦ .